جامعة محمد بن زايد
للعلوم الإنسانية
MOHAMED BIN ZAYED UNIVERSITY FOR HUMANITIES

كواين: ما بعد الفلسفة التحليليّة

الدلاليات وفلسفة العلم

الجـزء الثالـث

د. إبراهيم مشروح

الطبعة الأولى
1447 هـ - 2026 م

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة محمد بن زايد
للعلوم الإنسانية
MOHAMED BIN ZAYED UNIVERSITY FOR HUMANITIES

تأليف
الدكتور إبراهيم مشروح

الطبعة
الطبعة الأولى 1447 هـ - 2026 م

الترقيم الدولي
ISBN 9789948660859

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَة

يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بكافة طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي أو المسموع أو استخدامه حاسوبيًا بكافة أنواع الاستخدام وغير ذلك من الحقوق الفكرية والمادية إلا بإذن خطي من الناشر

+971 2 4999000 info@mbzuh.ac.ae www.mbzuh.ac.ae
mbzuh MBZ university for humanities

كواين: ما بعد الفلسفة التحليليَّة

الدلاليات وفلسفة العلم

الجـزء الثالـث

إلى حفيدي:

نعام مشروح Noam Machrouh

إيمانًا بالمستقبل...

إ.م.

فهرس المحتويات

مقدمـة 11

الفصل الأول: فلسفة العلم: طبيعانية المعرفة وشمولية الحقيقة 29

1. أسس فلسفة العلم عند كواين 37

2. النزعة الطبيعانية وفلسفة العلم 42

3. امتناع تحدد النظرية العلمية 53

4. الإبيستيمولوجية المطبوعة والنزعة الشكية 66

5. الصورة المفهومية والتجريبية المعتدلة 70

الفصل الثاني: الالتزام الأنطولوجي والنسبية الأنطولوجية 79

توطئـــة 83

1. الدلالة والأنطولوجيا 86

2. النسبية الأنطولوجية بين المنطق المحمولي ونظرية التسوير 101

3. النسبية الأنطولوجية بين الدلاليات وفلسفة المنطق 112

1.3. معيار الالتزام الأنطولوجي 121

2.3. القيمة الفلسفية للنسبية الأنطولوجية 136

الفصل الثالث: دعوى امتناع تحدد الترجمة 145

1. دعوى امتناع تحدد الترجمة: تحديدات أولية 148

2. الفرضيات التحليلية 154

3. مفاهيم الدلالة السلوكية ودعوى امتناع تحدد الترجمة 157

1.3. الجمل الظرفية أو الجمل العيانية 158

2.3. الجمل الأبدية 158

2.3 . المعنى المثير 158

2.3. الترادف المثير 159

2.3 . ظروف الإثارة 160

2.3. تحليلية الإثارة 160

4. الخلفية النظرية لدعوى امتناع تحدد الترجمة 162

5. امتناع تحدد الترجمة و"أسطورة المتحف" 167

6. نسبية الترجمة 183

7. خلاصة تركيبية 193

المصادر والمراجع 208

مقدمة

مقدمة

طوال الفصول الثلاثة التي تعرضنا فيها لأسس فلسفة العلم عند كواين، ونحن نجوب بالقارئ في منعرجات ومنعطفات هذا الفيلسوف، صُعدًا ونُزلًا، نتعقّب المسالك الوعرة لفكره، ونتسنَّم فيها شواهق النظر المنطقي- الفلسفي. وهكذا، بسطنا القول في المنعطف الإبيستيمولوجي الذي أحدثه كواين حين صاغ أطروحته الأساسية في فلسفة العلم، ويتعلق الأمر من جهة **بدعوى امتناع تحدد النظرية العلمية**، وبدعوى **الإبيبيستيمولوجيا المطبوعة**، أو **بطبيعانية المعرفة** من جهة أخرى.

لقد رمنا أن نسكته فلسفة العلم والإبيبستيمولوجيا المطبوعة من خلال تحديد مفهوم الإبيبستيمولوجا المطبوعة وطبيعانية **المعرفة**، ومن خلال إبراز موقف كواين من فلسفة المعرفة ومن الإبيبستيمولوجيا بصورة عامة كما وصفها كواين حين اعتبر أنها تتجسد في العلم وهو ينطبق على ذاته.

لا يستقيم النظر في فلسفة العلم عند كواين من غير استحضار **الأنطولوجيا**؛ فقد أجرى عليها كولين من القلب والتحويل من خلال مراجعة منطقية سلط فيها عدته وجهازه التحليلي ليبكت كثيرًا من طروحات أستاذه كارناب؛ فالأنطولوجيا عنده تقترن أيما اقتران بالدلالة التي فحصها في ضوء قوله بامتناع تمحيص الإحالة، وبامتناع تحديد النظرية العلمية.

لقد عقدنا الفصل الثاني لبيان الأطروحات الكواينية التي تتضافر فيها المقاربات المنطقية والفلسفية لإسناد الدعوى الرئيسة المتمثلة في **النسبية الأنطولوجية**، وبما أن الأنطولوجيا تبحث في جوهر الواقع وفي ماهية ما يكون موجودًا؛ فهي تقوم عند كواين على تحديد الموجود بالأخذ بمنطق المحمولات ونظرية التسوير التي تقيد المتغيرات؛ وهذا ما جعل كواين يقول بعبارة دقيقة: **الموجود هو القيمة الصدقية للمتغير**.

لقد جاء كواين بما يمكن أن نعتبره بمثابة مبدأ أنطولوجي عبر عنه بما يشبه التقرير أو الشعار: **لا ذاتية من غير هوية**. وقد انتهينا في هذا الفصل إلى بيان هذه المقولة التي حصرت الوجود في أن يكون مجرد قيمة للمتغير.

ولم يفتنا أن نقف عند مفهوم احتل الصدارة في موقف كواين من الوجود وأثار كثيرًا من النقاشات الفلسفية - المنطقية؛ ويتعلق الأمر **بمعيار الالتزام الأنطولوجي** الذي أفضى إلى دعوى رئيسة تفرد بها كواين بخصوص موقفه من الأنطولوجيا ألا وهي **دعوى النسبية الأنطولوجية**.

ولا شك أن كواين لا يحيد مبدئيًا عن نزعته التجريبية التي وصفها رتشارد رورتي بالنزعة التجريبية المعتدلة moderate empericism ففلسفته في العلم (الإبيستيمولوجيا المطبوعة) ظلت وفية لمنطلقاته التجريبية.

سيلاحظ القارئ أن الفصول الثلاثة تتداخل فيما بينها، بل ويستدعي بعضها البعض؛ فما بين فلسفة العلم والنسبية الأنطولوجية من جهة، وما بين طبيعانية المعرفة ودعوى امتناع تحدد الترجمة من جهة أخرى من التداخل ما يشهد على وحدة العلم وشمولية المقاربة عند كواين.

تدخل المباحث التي سنعالج فيها قضايا طرقها فكر كواين تخص أسس العلم، وطبيعة المعرفة البشرية، ومسائل تتعلق بالأنطولوجيا والترجمة في نطاق ما يمكن أن نصفه **بالفلسفة النظرية** theoritical philosophy وإن كان كواين لا يحبذ أي منطلق فلسفي مسبق أو قبلي.

وهكذا، فالقضايا التي سنتعرض لها لا يحكمها الأخذ من قبل كواين بأي **فلسفة أولى**؛ فهو لا يخرج الفلسفة من دائرة العلم، غير أنه يرى أنها - أي الفلسفة - تسمو عليه بدرجة من التجريد يخوض فيها الفلاسفة من غير أن يُعرضوا على شبكة المعارف البشرية في أسئلة اللغة والعقل والعلم والمنطق.

فإذا كانت الفلسفة النظرية meta-philosophy تركز على القضايا الأساسية، والإشكالات الكبرى المرتبطة بالمعرفة والواقع والعقل واللغة والمنطق، وكانت تشمل الميتافيزيقا والإيبيستيمولوجيا وفلسفة اللغة وفلسفة العقل وفلسفة المنطق، فإن فلسفة كواين لا تخرج عن هذه الدوائر الفلسفية-المنطقية والمعرفية-الوجودية، ولا تشطُّ عما بات يقلق الفلاسفة من أسئلة ظلوا يلتمسون لها أجوبة؛ كما أنه لم يأخذ بأي معطى مسبق أو ميتافيزيقي.

لقد قدم كواين أسسًا جديدة لنظرية المعرفة، وبالتالي لفلسفة العلم مخرجًا إياهما من دائرة الفلسفة التقليدية التي ظلت تعتبر مبحث المعرفة Gnoséology من مباحثها الكبرى إلى جانب مبحثي الوجود Ontology والقيم Axiology تتولى فيه النظر في أسس المعرفة، ومنطلقاتها ومسبقاتها، وشروط إمكانها.

لم يأخذ كواين بوجود فلسفة أولى سابقة عن كلِّ علم، إذ العلم عنده يفرز معطياته الأساسية ويطور إدراكنا للأشياء. ومن هنا اعتبر أن الإيبيستيمولوجيا، أو علم المعرفة، ينبغي أن تُدرس كسائر العلوم من قبيل البيولوجيا والسيكولوجيا...؛ وهكذا، ضحّى كواين بالمقاربات المنهجية الفلسفية التقليدية لصالح العلم التجريبي empirical science.

فلا أحد ينازع في كون كواين قد أحدث ثورة إيبيستيمولوجية وخرج بنزعة **ما بعد تجريبية** حيث لم يعد يعتبر مع المناطقة الوضعيين أن وظيفة الفلسفة تقتضي إجراء التحليل اللغوي-المنطقي للغة العلم لتشذيب لغته مما قد يعتريها من التباس، وتقويمها من خلال إقصاء الميتافيزيقا. فكواين لم يعد **يؤمن بوجود فلسفة خارج العلم**؛ لأن فلسفة العلم عنده **لا تزيد عن العلم وهو ينطبق على ذاته** science self applied؛ وإذا كان لفلسفة العلم من هالة، فإنما مردّها فقط إلى كونها أكثر تجريدًا، فهي تخضع لما يجريه العلم من تحويل على ذاته ومن خلال اشتغاله على موضوعاته.

ولذلك أفردنا فصلًا كاملًا لأطروحة كواين الأساسية في **فلسفة العلم** ألا وهي **دعوى طبيعانية المعرفة** التي اشتهرت تحت مُسمّى: **الإيبيستيمولوجيا المطبوعة** Epistemology naturatised؛ وبالنظر إلى اقتران هذه الدعوى بالأنطولوجيا، أي بالبحث في الموجود، فقد تناول فصل آخر أنطولوجيا كواين التي شكلت منعطفًا جديدًا في تاريخ الفلسفة من حيث ارتباطها بالعلم، ومن حيث تخليصها من **قبضة النزعة التجريبية** التي أقصت من خلالها الميتافيزيقا.

فعلى سبيل المثال، يكفي أن نطرح اليوم النتائج التي تتوصل إليها علوم الأعصاب neurosciences فتقدم إجابات عن تساؤلات واستشكالات فلسفية ظل الفلاسفة يخوضون فيها في تأملاتهم وتتحير فيها أذهانهم، ليتبدى أن النورولوجيا قد قادت إلى تهيء التربة للذكاء الاصطناعي قصد نقل خبرات الدماغ من الطبيعي إلى الآلي.

وذلك بعد أن تطورت علوم الأعصاب تطورًا سريعًا اقتضى منها الانخراط في التعددية المعرفية حيث استنفرت علوم اللسانيات والسيكولوجيا والبيولوجيا والعلوم الطبية والمعلوميات والمنطق والرياضيات. وهكذا تقوت الترسانة المفهومية والمنهجية لتضفي على علوم الأعصاب طابع التنوع والتعددية التي قاربت بها المسائل الجزيئية والخلوية والسيكولوجية والطبية والكيميائية والمعرفية cognitive والوراثية والحوسبية computational للدماغ، فضلًا عمّا ساهم به علم تصوير الدماغ cerebral imagery.

ومن هنا تلاشى دور الإبيبستيمولوجيا، أو قل أوشك أن يختفي، لأن المسائل التي انخرطت فيها العلوم التقنية صارت تقدم إجابات ترفع القلق الفلسفي؛ فالمقاربة الطبيعية الكواينية جعلت إمكانيات التطور قائمة في **شبكتنا العصبية** التي تتكيف مع محيطها وتلائم سلوكها مع معطيات الواقع.

بيد أن ما جاء به كواين بخصوص النظرية العلمية أثار كثيرًا من التحفظات فيما يتعلق بالتحديد بالتزام النظرية العلمية بموضوعاتها حيث فرق بين أنطولوجية النظرية وإيديولوجيتها فبين أن الأنطولوجيا

تتحدد بما ينبغي أن تلتزم به النظرية من موضوعات تتناولها أسوارها quantifiers لتضمن صدقها، بينما تتحدد الإيديولوجيا في جملة من المفاهيم الأولية التي يجب أن تبيِّنها النظرية.

ولذلك أفردنا فصلًا كاملًا لأنطولوجيا كواين التي شكّلت منعطفًا جديدًا في تاريخ الفلسفة من حيث ربطها بالعلم، ومن حيث تخليصُها من قبضة النزعة التجريبية التي أقصت من خلالها الميتافيزيقا؛ وهذا لا يعني أن كواين كان ميتافيزيقيا، بل إنه بطبيعانيته وبنزعته الفيزيائية استطاع أن يبني تصورًا متماسكًا في فلسفة العلم المعاصرة يمكن أن نلحقه بما بعد النزعة التحليلية.

لقد بعث كواين الروح في قلب الميتافيزيقا بعد أن كاد أن يجهز عليها كارناب في مقالته لسنة 1950 تحت عنوان: "**التجريبية والدلاليات والأنطولوجيا**" فقد أجهز كواين -كما مر بنا في الجزء الأول من هذا العمل- على دعاوى مدرسة فيينا متمثلة في عمدتها كارناب.

فمع أن الميتافيزيقا شهدت منذ كانط خلخلة نسبية حين تساءل عن عدم اجتراحها للطريق الملكي، وإلى حين هايدغر الذي قوض أركانها ليفرق بين الوجود والموجود الذي هيمن على تاريخ الفلسفة الغربية منذ أرسطو، كان كواين قد نحا منحى طبيعانيًا في التعاطي مع الميتافيزيقا؛ وذلك لأنه بنزعته الفيزيائية لم يغادر تربة العلم بل لم يؤمن بوجود فلسفة أولى سابقة على العلم أو ميتافيزيقا يتأسس عليها كل علم ممكن.

لقد استطـاع كوايــن أن يضـع في مقالتــه الشهيرة: "في الموجـود" "On what there is"[1] أسسًا جديدة للأنطولوجيا. فقد جاء في كتاب جماعي تحت عنوان **ميتا- ميتافيزيقا: أبحاث جديدة في أسس الأنطولوجيا** [2]- ضمّ بين دفتيه مقالات في غاية العمق والدقة حول أنطولوجيا كواين- أن هذا الأخير تمكن بالفعل من أن يتأمل **ميتا-الأنطولوجيا** من خلال عودته إلى السؤال التقليدي: ما الموجود؟ لكن جوابه لم يكن جوابًا تقليديًا. وذلك في وقت حظيت فيه الأنطولوجيا، وبالتالي الميتافيزيقا، بعناية فلسفية كبرى في نطاق الفلسفة القارية مع هايدغر بالذات.

كانت الميتافيزيقا قد شهدت وضعا قلقا في منتصف القرن العشرين حيث تعرضت لنقد شديد سواء في الفلسفة القارية مع هايدغر بالخصوص، أو مع الفلسفة التحليلية وبالذات مع كارناب في مقالته التي رام فيها إقصاء الميتافيزيقا باعتماد التحليل المنطقي[3].

وأما هايدغر فقد قوّض الميتافيزيقا الغربية، وفكك أنطولوجيتها في كتابه الشهير **الوجود والزمان** Zein und Zeit حيث فرق بين الوجود والموجود ليخوض بعد ذلك في السؤال العجيب: **ما الميتافيزيقا؟** إن الفكر

1 Quine, Willard Van, "On what there is"; Review of Metaphysice 2, 1948, reprinted In: *The Logical Point of View*, Cambridge Harvard University Press, 1953.

2 Chalmers, David .et al, (Edited by), *Metametaphysics: New essays on the Foundations of Ontology*, Clarendon Press,Oxford, 2009.

3 Carnap, Rudolph, "The elimination of Metaphysics through the Analysis of Language".

كان كارناب قد نشر هذه المقالة في مجلة **المعرفة** *Erkenntnis* تحت عنوان:

"Uberwindung der Metaphysik durch Analyse der Sprache" *Erkenntnis* II, 1932.

ليتعجب في وجود الموجود، حيث ننسى الوجود ونتعلق بالموجود، وهذا بالنسبة لمن لا يتفكّر فلسفيًا في سؤال الوجود.

وقد اعتبر هايذغر أن الإنسان هو راعي الوجود من حيث كونه لا يختزل في الموجودات؛ فهو، أي الكائن-هنا Da-sein في العالم يتمتع بكونه هو الذي يعطاه الوجود كما يُعطى للراعي القطيع: " الكائن- هنا، أو الدازاين، لا يمكن أن يختزل في الموجود إلا حين يقف أمام العدم. فتجاوزه وسموه على الموجود، وتعاليه عليه، يحصل تاريخيًا في جوهر الكائن-هنا [الضازاين Da-sein]؛ غير أن هذا التعالي هو بالذات الميتافيزيقا، وعنه ينتجُ: أن الميتافيزيقا تنتمي لجوهر الإنسان....الميتافيزيقا هي "ما يقبل" علينا zukommen، وهو الجوهري في الكائن هنا 'الضازاين'، بل هو الكائن هنا نفسه"[1].

ومع ذلك، ثمة اختلاف جوهري بين كواين وهايدغر، فكواين لا يفرق بين الوجود والموجود، بخلاف هايدغر الذي ارتأى أن الفكر الغربي قد نسي سؤال الوجود؛ لذلك فرق بين الموجود ontic والوجود ontologic معتبرًا أن الموجود هو شأن النظر العلمي، أي الفيزيائي، وأما سؤال الوجود فقد جعله شغل الفلاسفة الشاغل[2].

1 Heidegger, Martin, *Qu'est-ce que la métaphysique*, Traduction Henry Corbin, Questions I, Coll. TEL, Gallimard, p. 71.

2 Marasoiu, Andrei Ionut "Quine' s Ontology. The interplay between Commitement and Decision", *European Journal of Pragmatism And American Philosophy* ; [Online], XII-2 | 2020, Online since 14 December 2020, connection on 15 December 2020: https://doi.org/10.4000/ejpap.2243

لقد وضع كواين سؤال الوجود في صميم الاشتغال العلمي، بل طوى الأسئلة الوجودية الميتافيزيقية في صلب المعرفة الطبيعية؛ فلا فلسفة خارج العلم؛ وقد اتخذ من الالتزام الأنطولوجي دليلًا للخوض في المنازعات الأنطولوجية، إذ كل نظرية علمية تلتزم بموضوعاتها كما سنبينه لاحقًا.

وبالعودة إلى هايدغر، فإنه لم يبرح تربة الميتافيزيقا الغربية مستلهما تساؤلات الميتافيزيقيين عن الوجود كما هو الحال مع ليبنتز Leibniz الذي طرح سؤالًا يثبت به سببية وجود الموجودات ليعزوها للسبب الأول: الله، لكن هايدغر طرح نفس السؤال بنية مغايرة؛ والسؤال نفسه هو: "لماذا وجدت الموجودات وليس اللاشيء؟"

Warum ist uberhaupt Seindes und nicht vielmher nichts?

نحن نقف عند الموجودات ولا نتوقف عند **'وجود'** الموجودات . إننا لنغفل عن الوجود من كثرة إلفنا بالموجود أكثر مما تغفل السمكة عن كونها في الماء! وهذه الاستعارة لبيتر فان إنفاغن Peter van Inwagen[1].

وهكذا تعود مسألة الغفلة إلى عدم التفريق بين الموجود والوجود- أو بعبارة هايدغر: نسيان الوجود- إلى الميتافزيقا الغربية التي لم تمض فيما دشّنه الفلاسفة السابقون على سقراط، فانصاعت إلى أرسطو الذي حصرها في دائرة الموجود، ولم يتم استيعاب **"الـ - ما - وراء"** الذي أومأ إليه أفلاطون نفسه حين تحدث عن الحقيقة بكونها تكمن فيما وراء الظواهر، أي أنها تقع في الخبء.

1 Inwagen, Peter van "Being, Existence and Ontological commitement", In David Chalmers, *Metametaphysics: New essays on the Foundations of Ontology*, op.cit. p. 472.

لقد راجع هايدغر الأحكام المسبقة عن الوجود بما فيها بعض التحديدات المنطقية التي تجعل الوجود جنسًا أعلى أو جنس الأجناس؛ فهو لفظ كلّي يقال على ما يقع تحته ولا يصير البتة نوعًا، ومن ثمة فهو يمتنع عن التعريف، إذ التعريف لا يعطى إلا للجنس القريب المناسب!

Definitio fit per genus proximum et differntiam specificam.

ومع الهجوم الشديد الذي شهدته الميتافيزيقا سواء من قبل الوضعيين الجدد، أو من قبل هايدغر بالتحديد، فقد دلّ هذا الوضع على ما صدّق رؤية كانط في ممهداته لكل ميتافيزيقا مستقبلية حيث اعتبر أن الميتافيزيقا هي الفلسفة بامتياز[1]، فهي الفلسفة الحقيقية، وإن كان قد شبه مجال الميتافيزيقا بميدان أو معترك تقوم على بساطه الصراعات التأملية والمنازعات الفلسفية[2].

فإذا كانت الفلسفة - من وجهة نظر كانط - تشكل نسق المعرفة العقلانية التي تتم بواسطة المفاهيم، فإن الميتافيزيقا بوصفها الفلسفة الأولى، وبوصفها الفلسفة التي تتعلق بالمبادئ الأولى للمعرفة، ستكون بحق هي الفلسفة الجديرة بهذه التسمية بامتياز. فكانط رام أن يظفر بالطريق الملكية للميتافيزيقا نحو العلم بالمعنى الواسع؛ لأن الفلسفة تشمل العلم من جهة كونها تنظر في أسس وشروط إمكان معرفتنا.

1 Kant, Emmanuel, *Prolégomènes à toute métaphysique feture, qui aura le mot de se présenter comme science***,** suivie de deux autre fragments du même auteur relatifs au Critique de la raison pure. traduit par J. Tissot, librairie philosophique de Ladrange; Paris 1865. Cf.**:** https://archive.org/details/bub_gb_F5Uh2pQaiGMC/page/n5/mode/2up?view=theater

2 Kant, *Critique de la raison pratique*, Garnier Flammarion, 1ère édition, p. 29.

لقد نصح كانط في كتابه: **مقدمات لكلِّ ميتافيزيقا ممكنة** الفلاسفة الذين سيتعاطون مع الميتافيزيقا بأن يتوقفوا مؤقتًا عن انشغالهم، وأن يضربوا صفحًا عن كل ما تمّ إنجازه، وأن يتساءلوا عما إذا كان من الممكن أن يكون شيء ما من قبيل الميتافيزيقا ما يزال ممكنًا[1].

ومع ذلك، لم يكن هايدغر ممن يبحث عن هذا الطريق الملكي للميتافيزيقا، بل حاد عنه، وكشف عن لعبة الموجود Seinde والوجود Sein حين أشار إلى فراقٍ بينهما من حيث أن ما بينَهما يفرق بينهما بالقدر الذي يجمعهما[2].

وأما كواين **فقد لفظ كل ميتافيزيقا ممكنة** بنزعته الطبيعية وبشموليته المعرفية، كنتيجة حتمية لرفضه لكل **فلسفة أولى** سابقة على العلم. فهو لا يلتقي بفكرة إقصاء الميتافيزيقا لدى كارناب باستخدام العدة المنطقية؛ بل يرى أن الفلسفة، لا كفلسفة أولى، بل بوصفها نظرًا من درجة أعلى من حيث التجريد لا تخرج عن دائرة العلم.

وهذا يذكرنا، تقريبًا، بما ذهب إليه مايرسون Meyerson حين تحدث عن أوغست كومت A. Comte الذي اعتبر أن الفلسفة نمط من التفكير الميتافيزيقي يمثل مرحلة تجاوزها العلم الذي تخلص نسبيًا من سطوة المفاهيم الفلسفية. وللأهمية نورد نص مايرسون:

1 Kant, *Prolégomènes à toute métaphysique feture, qui aura le mot de se présenter comme science*, op. cit. pp. 7-8.

2 Dondeyne, Abert, "La différence ontologique chez M. Heidegger", *Revue philosophique de Louvain*, 1958. P. 35 et suiv.

" لقد امتنع الفيلسوف المثالي الكبير لو-غوي Le Roy[1] بحكمة عن صوْغ تطبيقات لمبدئه؛ غير أن أغست كومت فسر الأمر بدقة أكبر؛ فمنذ ذلك الحين، امتدح فوريي Fourrier الذي عالج موضوع الحرارة دون أن يعبأ بما إذا كانت مادة أو حركة، وتجاهل أن تكون نظرية التموج théorie de l' ondulation أو غيرها لا يمكنها أن تقدم البتة "منفعة حقيقية لتوجيه فكرنا في الدراسة الفعلية للبصريات"[2].

إذا جاز لنا أن نموقع فلسفة العلم عند كواين، فلن نشِطّ بها عن التوجه الوضعي الذي يرى اكتفاء العلم بذاته، ويعتبر أن النزعة الفيزيائية تنمّ عن وحدة العلم وشموليته؛ فلا تساؤلات فلسفية تأتي العلم من خارجه؛ فحتى تاريخ العلم هو تاريخ مساره الحقيقي نحو تحقق نظرياته التي تسعى إلى الإحاطة خبرا بالواقع.

وسط أجواء من التنافس بين مقاربات فلسفة العلم وتاريخه، ورواج أسماء وازنة كتوماس كيون T. Khun وإمري لا كاتوس Imre Lakatos وبول فايربند P. Fayerbend، كان وضع فلسفة العلم عند كواين مثيرا للجدل خصوصًا بعد مقالته الشهيرة: "معتقدًا النزعة التجريبية" التي سيعيد إصدارها في كتابه: **من وجهة نظر منطقية**. وذلك بعد أن توجه بالنقد المباشر لكارناب.

كان لنقد كواين لكارناب الأثر الكبير على فلاسفة العلم. وذلك حين اعترض على ثنائية الأسئلة الخارجية والأسئلة الداخلية للعلم؛ ومن هنا

1 Le Roy, Édouard, *Science et philosophie*, Revue de Métaphysique, VII, 1899. P. 534.

2 op. cit. p. 354.

طرحت مسألة الأنطولوجيا على بساط النقاش؛ فبالرغم من أن كواين يدعي نسبية الأنطولوجية، فإنه لا يرى إمكانية إقصائها من الفيزياء[1].

يرى كواين - شأنه في ذلك شأن مايرسون - أن الواقع لا يمكن البحث عنه خارج العلم؛ فهما يعتبران أن أنطولوجية النظرية العلمية هي التي تكشف لنا عن الواقع، وإن قاربته - حسب كواين - مقاربة نسبية سيتولى كواين فيما بعد بيانها في أكثر من سياق من أعماله خصوصًا دعواه القاضية بنسبية الأنطولوجيا.

لقد ركز كواين على ما تكشف عنه النظريات العلمية من تغيرات في واقع الموضوعات التي يتناولها العلم، بيد أنه لم ينته إلى نزعة نسبية خالصة ولا إلى نزعة تشكيكية صريحة أو ضمنية؛ فحتى حين قال بالنسبية، فقد عزاها لموضوع إيبيستيمولوجيا الأنطولوجيا، ولم يعزها للأنطولوجيا بصورة عامة. وهو بهذا الصدد يشبه ما ذهب إليه داود هلبرت D. Hilbert حين ركز على أن مسألة الوجود في الرياضيات تفترض واقعية من نوع خاص تتعارض على الأقل مع الرياضيات الأفلاطونية.

يشترط هلبرت فيما يتعلق بأنطولوجيا الرياضيات التركيز على الإيجاز واقتصاد[2] الفكر لتوفير رؤية للواقع الرياضي الذي لا يكمن في الوجود الحقيقي وإنما يكمن في الوجود العلائقي؛ غير أن كواين يعتبر أن المسائل الأنطولوجية

1 Kant, *Prolégomènes à toute métaphysique feture, qui aura le mot de se présenter comme science*, op. cit. pp. 7-8.

2 Boniface, Jacqueline, *Hilbert et la notion d' existence en mathématique*, édition Vrin, coll. Mathesis, 2004
https://www.normalesup.org/~sage/Reflexions/Maths/JBhilbertExist.pdf

توجد على نفس المستوى الذي توجد عليه مسائل العلم الطبيعي[1].

ليست المسائل الأنطولوجية العامة عند كواين من شأن اللغة التي قد تتمثل حاضنتها في الإطار المفهومي Framework، ولا هي من شأن الفرضيات العلمية العادية، فمسائل اللغة عنده هي عينها مسائل الواقع، بل إنها ليست البتة موضوعًا للمواضعة فنحن حين نتكلم تكون اللغة وسيلتنا أو تقنيتنا أو حتى حيلتنا في أن نتحدث عن الواقع.

ومن هنا لم يأخذ كواين- نتيجة لعدم تفريقه بين العبارات التحليلية والعبارات التركيبية- بالتمييز بين الأسئلة الداخلية والأسئلة الخارجية، إذ كل شيء يعطى من خلال اللغة وبواسطتها بحيث تدخل النظرية العلمية ذاتها في اللغة التي تعطانا من خلالها حقيقة الواقع. فالنظرية تقدم تصورًا ومعطيات عن الموجود بفرضياتها وتجاربها واستنتاجاتها، تكمن أنطولوجيتها فيما تلتزم به من موضوعات.

وعلى هذا الأساس، صرح كواين قائلًا: "لن يتم توضيح الحقيقة الأنطولوجية بالتمييز بين أنواع [العبارات الحملية] الكلية الواقعية وغير الواقعية، الداخلية والخارجية"[2]؛ فكل الأسئلة عند كواين أسئلة داخلية ومحايثة؛ وذلك لأن الإبيستيمولوجيا نفسها هي العلم وهو ينطبق على نفسه، ومن هنا لا خيار بين اللغة والنظرية، وبالتحديد، فإن كواين يرفض بتاتًا التفريق بين الأسئلة الداخلية والأسئلة الخارجية التي جاء بها كارناب.

1 Quine**,** *Ontological relativity, and other essays*, Cambridge University Press, p.93.

2 Ibid. p. 53.

الفصل الأوّل

فلسفة العلم: طبيعانية المعرفة وشمولية الحقيقة

الفصـل الأوّل

فلسفة العلم: طبيعانية المعرفة وشمولية الحقيقة

تتناول فقرات هذا الفصل أسس فلسفة العلم عند كواين لبيان منطلقاتها وخلفيتها المنطقية-الفلسفية؛ وسنركز على الأطروحة الأساسية لفلسفة العلم عند كواين حيث نبرز أنها تتخلى عن أي منطق خارج منطق العلم، وعن أية فلسفة تلقي تساؤل العلم من الخارج.

ونحن نراهن على إثبات ما يفيد أن كواين يمثل - كما بيناه في الجزئين السابقين من هذا العمل - ما بعد الفلسفة التحليلية خصوصًا نزعته الطبيعانية التي تعرب عن مقدمات رئيسة لدعوى الإيبيستيمولوجيا الطبيعية، أو المطبوعة epistemology naturalized .

ولا شك أن فلسفة العلم لدى كواين قد أنضجتها معطيات من دلاليات النظرية العلمية التي تجسدها دعواه القاضية بامتناع تحدد النظريات under determination of the theory أي أن معطيات التجربة لا تحدد نظرية فريدة ووحيدة عن الواقع؛ ذلك أن الحقيقة تكون محايثة للخطاطة المفهومية conceptual scheme وللغتنا وللذوات entities التي تطرحها؛ ولذلك سنسع هذه المسألة بحثا في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل.

وللإشارة فإن فقرات هذا الفصل يحيل بعضها على بعض، وتتداخل موادها بتداخل دعاوى كواين التي تدور حول فلسفة العلم؛ لذا ينبغي للقارئ أن يستحضر، في كل وقت وحين، الخلفية الدلالية الموجهة للإبيستيمولوجيا الكواينية.

فإذا كانت الإبستيمولوجيا إنما تعنى بأسس العلم، فإنها عند كواين لا تنظر من خارج العلم، ولا تسائله بأسئلة لا تنتمي لحقله، بل إن الإبيستيمولوجيا بذاتها تدخل في صميم الاشتغال العلمي؛ فبعدما ظن فلاسفة العلم منذ مطلع النصف الأول من القرن العشرين أنهم استطاعوا أن يجددوا أسس العلم بعد أزمة الأسس، خصوصًا في الرياضيات، وذلك برد الرياضيات إلى المنطق، برزت توجهات جديدة خلت من إرهاصات مساءلة العلم من الخارج حيث بدأ الاشتغال عليه من الداخل سواء بالمقاربة التاريخية، أو بالمقاربة النقدية.

لقد شهدت عملية اختزال الرياضيات في المنطق، كما بينت نظرية المجموعات عن امتناع هذا الاختزال، فاستكان الإيبيستيمولوجيون بعد أن انشطرت الدراسات في أسس الرياضيات إلى قسمين: قسم يعنى بالجانب المفهومي ويتعلق بالمعنى وتكمن وظيفته في توضيح المفاهيم وتحديدها، وقسم يعنى بالجانب المذهبي ويتعلق بالصدق، وتكمن وظيفته في وضع القوانين المكونة من هذه المفاهيم.

وقد بات معلومًا لدينا أن كواين لا يأخذ بهذا التفريق بناء على نقده اللاذع للبرنامج التحليلي الوضعي الذي يمثله كارناب خير تمثيل؛ كما أن كيون ذهب إلى نقطة أبعد حيث كشف عن تاريخية العلم وبين كيف تحدث

داخله الثورات وكيف تحدث الانتقالات من العلم العادي إلى العلم الذي يتخذ لنفسه نموذجًا إرشاديًا جديدًا[1].

ومن أهم ما جاء به كيون في كتابه **بنية الثورات العلمية** مقولتي العلم العادي، والثورة العلمية والنموذج الإرشادي؛ فهو يرى أن العلم العادي عبارة عن طرائق معتمدة من قبل جماعة علمية تتعارف عليها، وتستخدمها في حل مسائلها وألغازها puzzel solving activity وتنضوي هذه الطرائق تحت إطار مرجعي للعلماء يكون موجودًا بصورة مسبقة مقبولة من قبلهم.

وتحدث الثورة العلمية عندما تبدأ طرائق العلم العادي تكشف عن عجزها عن تقديم الحلول المناسبة لمعضلات علمية طارئة، فيحصل نوع من الانزياح عن تلك الطرائق التي تكاد تكون مسكوكات، فيعمد العلماء شيئًا فشيئًا إلى تبني رؤية جديدة وتبديل طرائق قديمة بطرائق مبتكرة.

ولو شئنا أن نسقط هذا الواقع على مكانة نقد كواين للوضعية المنطقية، لقلنا إنه كشف عن كون الطرائق التحليلية الوضعية المنطقية حين فرقت بين القضايا التحليلية والقضايا التركيبية، شكلت إطارًا علميًا عالجت فيه قضاياها، إلى حين تصدى فيه كواين لهذا المعتقد.

وتجدر الإشارة إلى أن الإبيستيمولوجيا قد عرفت فروقًا كثيرة أفرزتها المقاربات المتنوعة وكرستها المدارس الفكرية المختلفة خصوصًا

1 Laugier, Sandra, "Signification et incommnsurabilité: Khun, Carnap, Quine". *Archives de philosophie* 2003/3 Tome 66.
https://qattanfoundation.org/sites/default/files/u2/ro2a_29_007.pdf

بين الإبيستيمولوجيا الفرنسية والإبيستيمولوجيا الأنغلوسكسونية وإن جمعت بعض الإبيستيمولوجيين دائرة تاريخ العلوم كما هو الحال فيما بين الفرنسيين ديوهيم Duhem الذي سيقترن اسمه بكواين في الأطروحة الشهيرة: كواين-ديوهيم، وألكسند ركويري A. Koyré وميّرسون Mayerson.

لقد أثار كيون بجهازه المفاهيمي الجديد الذي شمل امتناع المقايسة incommensurablity ومفهوم الأنموذج الإرشادي، وتغيُّر الأنموذج، والعلم العادي...وأما مع بوبر، فآل الأمر إلى التفكير في الوضع الإبيستيمولوجي للعلم وعلاقته بالميتافيزيقا حيث تخلى عن التصور الوضعي؛ تلك تحولات شهدتها الإبيستيمولوجيا في المناخ الفكري الذي عاشه كواين.

بيد أن كواين سيتخذ وجهة أخرى بعد تفنيده لمعتقدي النزعة التجريبية، وبعد أن اعترض على التفريق بين القضايا التحليلية والقضايا التركيبية ليخلص إلى أن العلم لا يقتضي وجود فلسفة أولى، وأن الميتافيزيقا تتبدد بواسطة تفكيك الأنطولوجيا؛ ومن هنا كانت لأطروحة امتناع تحدد النظرية العلمية، وأطروحة كواين-ديوهيم، الأثر الكبير في فلسفة العلم لدى كواين.

ومع ذلك، فقد أمست الإبيستيمولوجيا إلى حدود بداية الستينيات تشهد جمودًا إلى درجة وصفها معها البعض بالإبيستيمولوجيا المحنطة، خصوصًا بعد أن اجتاحتها النزعة المنطقية أو التجريبية المنطقية ممثلة في قمتها رودلف كارناب؛ لكن النقد الذي سينهال عليها من قبل كواين في

كتابيه: **من وجهة نظر منطقية**، **والكلمة والشيء**، وبالذات حين أبطل ثنائية التحليل والتركيب، وفند بذلك معتقدات النزعة الوضعية المنطقية.

وقد ساوق هذا المنعطف الذي جسدته طروحات كواين ضد كارناب، طروحات ، كلٍّ من كيون وفايرابند Feyerbend ضد كارل بوبر Karl Popper؛ حيث هاجم كواين النزعة التحققية لدى الوضعيين المناطقة، وهاجم كيون وفايربانذ قابلية الإبطال أو قابلية التكذيب refutability لدى بوبر الذي كان قد اعتبر في كتابه: **منطق الاكتشاف العلمي**[1] أن المقاربة المنهجية التحققية القائمة على النموذج الاستقرائي، ومقاربته المنهجية القائمة على قابلية الإبطال ليستا متكافئتين ولا متطابقتين. ومع ذلك، فإنهما لا تنفكان كلتاهما - رغم عدم تطابقهما- ليس فحسب عن المنهج العلمي، بل وتلتصقان أيّما التصاق بالوضع العلمي.

ومع هذا التصريح، فإن بوبر سيبين الحدود، وسيرد عن الاعتراض القاضي بكونه ضحى بالمنطق الاستقرائي في سبيل استكشاف منطق الاكتشاف العلمي بمعيار قابلية الإبطال ليقول مستدركًا:

> "إن ردّي على هذا الاعتراض يكمن في أن السبب الرئيس لرفضي واستبعادي للمنطق الاستقرائي يرجع بالضبط إلى كونه لا يمِدنا بعلامة متميزة تدل على الخاصية الاختبارية empirical، لا الميتافيزيقية، للنسق النظري؛ أو بعبارة أخرى، لا يزودنا بمعيار مناسب لبيان الحدود"[2].

1 Popper, Karl, *Logik der Forschung*.., First published 1935 *by Verlag von Julisu Springer, Vienna Austria. English translation: The logic of scientific discovery*, London and New york, Routledge 2002.

2 Ibid., p. 11.

ويبدو أن الإبستيمولوجيا قد انحصرت في هذه الفترة بين توجهيْ كلٍّ من كارناب وبوبر؛ بل إنها لم تكن تدور سوى في فلك نقدي خصوصًا في مواجهة بوبر[1] كما هو الحال مع لا كاتوس Imre Lakatos ، وبين لاكاتوس وفايرابند؛ غير أن تكسير القاعدة سيحصل مع وجهة توماس كيون التاريخية النقدية، ومع كواين الذي سيُتم تقويض أسس فلسفة العلم لدى الوضعيين المناطقة ويُدخل الإيبيستيمولوجيا في دائرة العلم ليصفها بالإيبيستيمولوجيا المطبوعة.

تجعلنا فلسفة العلم عند كواين نشرف على نزعته الطبيعانية naturalistic التي تفتح بدورها أفقا لما بعد النزعة التجريبية، أو لما يمكن أن نعبر عنه- مع رورتي Rorty- **بالتجريبية المعتدلة** moderate empiricism التي امتازت بها فلسفته بعد أن نقضت معتقدات التجريبية المنطقية مختزلة في كارناب.

وتفيد التجريبية المعتدلة أن معارفنا تتأتى بالأساس من الملاحظة المباشرة، أو من التجربة العيانية، غير أنها تقِرّ بوجود بعض الحقائق الأساسية التي لا تتأتى من التجربة، بل تكون مجرد تعريفات أي قضايا صادقة بالتعريف، أو مجرد مواضعات لغوية.

وسنتمكن من الخلوص، في هذا الفصل، إلى تخصيص فلسفة كواين بكونها تحمل شروط إمكان رفض كل خلفية فلسفية تزعم وجود فلسفة أولى أو ميتافيزيقا، لتؤكّد بالمقابل طبيعانية المعرفة.

1 Binmore, Kenneth, *Imaginary Philosophical Dialogues between Sages down the Ages* " Imre Lakatos vesus Karl Popper", chapter 30, Ed. Springer, 2020.

1. أسس فلسفة العلم عند كواين

تنطلق فلسفة العلم عند كواين من مبدأ أساس يقضي **بعدم الفصل بين العلم والفلسفة**، وقد خالف فيه كواين مذهب الوضعية التجريبية المنطقية؛ ويفيد هذا المبدأ أن امتناع الفصل بين العلم والفلسفة يتأتى من الاعتراض على مصادرة غير مُسلَّمة؛ فقد زعم الوضعيون أن الفلسفة خطاب حول العلم، وبالتالي فإن وظيفتها إنما تنحصر في تطهير العلم من شوائب الميتافيزيقا، والعناية بتدقيق **لغة** العلم.

ومن المعلوم أن كواين قد استلهم أسس فلسفة العلم من بحوثه في المنطق ومن عنايته الشديدة، على الخصوص، بالشروط الواقعية أو الموضوعية لتحقُّق النظرية العلمية[1]، كما اهتم بقيمة النظرية للمعرفة العلمية في علاقتها بالصدق؛ ولهذا لم تكن الفلسفة، في نظره، مجرد **نشاط أو فاعِلية نظرية تقبع فيها الفلسفة خارج العلم**، فالفلسفة لم تعد تمثل، بالنسبة إليه، **خطابًا** حول العلم.

تواجه فلسفة العلم عند كواين التقاليد الثلاثة لنظرية المعرفة:

- **النزعة الشكية** التي لاتؤمن بجزئيات الحقائق الموضوعية ولا بالمعرفة الكلية؛
- **النزعة العقلانية** التي لا تجد إمكانية للتحقق بالموضوعات، ولا

1 لقد عالجنا هذه المسألة في كتابنا: **كواين: ما بعد النزعة التجريبية: الدلاليات وفلسفة اللغة**، جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية، ط2، 2025، حيث وقفنا في مؤلفه مناهج المنطق الذي نقلناه إلى العربية على اهتمامه بالنظرية العلمية، راجع:
Quine, *Methods of Logic*, Fourth edition.

لتوكيد الحقائق الكلية إلا من خلال العقل وبواسطته، فالعقل شرط لكل معرفة ممكنة.

- **النزعة التجريبية** الكلاسيكية التي تجعل التجربة الحسية، وليس العقل شرطًا ضروريًا لكل معرفة ممكنة.

بيد أن كواين لم ينخرط مباشرة في القضية الفلسفية لنظرية المعرفة؛ ومع ذلك، لم تكن نيته تنصرف إلى تأسيس المعرفة، وإنما كان يجد نفسه، وهو يعترض على مطلقات ومسبقات الوضعية المنطقية، يجابه المسائل المتعلقة بالمعرفة الموروثة عن التقليد الفلسفي.

لقد أمست طروحات كواين الأساسية بخصوص المعرفة العلمية جوهر نظرية المعرفة كقضية فلسفية أدمن عليها الفلاسفة منذ سقراط في محاورة مينون Menon، وإلى يومنا هذا، ثم انتقلت إلى السجال الفلسفي الذي سيثيره قراؤه ونقاده.

يمكن أن نختزل طروحات كواين حول المعرفة العلمية عمومًا في ما يلي:

- لا تقع الإبيستيمولوجيا خارج الممارسة العلمية، ففلسفة العلم هي العلم وهو ينطبق على نفسه؛
- الإبيستيمولوجيا في الأصل فصل من فصول العلم، لا تكاد تخرج عنه؛
- تتسم الإبيستيمولوجيا بكونها وصفية لا معيارية، وبالتالي، فإنها تتبع الممارسة العلمية ولا تخرج عنها لتضع من الخارج معايير لكل ممارسة علمية ممكنة[1].

1 Alcazar, Javier Rodriguez "Epistimic Aims and Values in W. V. O. Quine's Naturalized Epistemology", *Philosophical Issues*, 3, Science and Knowledge, 1993. P. 312 and follow.

لم يعد ثمَّة أيُّ فرق قد نقيمه بين الفلسفة والعلم، وذلك بمجرد أن أجهز كواين على الثنائية التي صاغها **كارناب**، وهي ثنائية تفرِّق بين **الأسئلة الخارجية والأسئلة الداخلية**: يرى كارناب أن العالِم هو الذي يستعمل المفاهيم العلمية من قبيل: "الإلكترون" و"الذرة" و"الطاقة" ، بينما قُصارى ما يضطلع به الفيلسوف هو أن يتكلّم عن هذه المفاهيم أي أن العالِم يشتغل ويمارس **المعرفة، بينما يكتفي الفيلسوف بتحليل لغتها.**

وللإشارة، فإننا نتغاضى هنا عن الخوض فيما يمكن أن نصفه بأزمة الضمير التي حاقت ببعض العلماء الذين ساءلوا حدود العلم وأفقه المنبئ بمنقلبات كئيبة خصوصًا بعد تطوير السلاح النووي؛ ولذلك ذكر هايزنبرغ Heisenberg بكون العلم صنيعة الإنسان، ويجب أن يكون لصالح الإنسان[1].

عندما كان نيلز بوهر Niels Bohr منشغلًا بالشروط التي تنطبق فيها المفاهيم الفيزيائية أو مفاهيم العلم الطبيعي عمومًا على الوقائع، تساءل عمَّ إذا كانت الرّسوم أو الأوصاف التقليدية ما تزال تحتفظ بمعناها، فاكتشف لتوِّه أن ذلك يقتضي الإقرار بأصل مستديم أو بمبدأ يقتضي وجود الصفات أو الخصائص بحيث يؤثر قياس كلّ خاصيّة في قيّاس الخاصية الأخرى وفق المنظور **التكاملي**.

وهنا لا نتصور أن نيلز بوهر قد غادر تربة العلم لكي يعانق الميتافيزيقا، بل إنه ظلَّ في صميم العلم، فلم يخرجه سؤاله الفلسفي من العلم ولا منظوره العلمي من الفلسفة، وهنا امتنع الفصل بين التفلسف

1 Werner Heisenberg, *La partie et le tout, le monde de la physique atomique*, (Der Teil und das Ganze) Trad. Allemande Paul Kesler, Garnier flammarion. Champs sciences.3016 .Cf. intro.

والنظر العلمي؛ وبالمقابل كان اينشتاين يبحث في الوجود بمفاهيم فيزيائية، فكانت أنطولوجيته العلمية حول الأبعاد غير عارية من الخلفية الفلسفية[1] فانتصب الدليل على بطلان ثنائية الأسئلة الخارجية والأسئلة الداخلية.

إن مسألة فصل العلم عن الفلسفة موروثة عن الفكر الوضعي الذي اختزل الفلسفة في الميتافيزيقا ظنًّا منه أن العلم واقعي وموضوعي وحقائقه ضرورية وحتمية، في حين أن قضايا الفلسفة "خالية من المعنى"؛ لذلك لم يعترف الوضعيون المناطقة سوى بالمضمون التجريبي والصورة المنطقية، فقصروا وظيفة الفلسفة على التحليل المنطقي للغة العلم من أجل إقصاء الميتافيزيقا.

تأخذ المسألة صورتين: تتمثل أولاهما في **المفاهيم**، بينما تتجسد ثانيتهما في **الوقائع**؛ فكيف نتعرف على الموضوعات أو الأشياء التي تدل عليها ألفاظنا أو مفاهيمنا؟

لابد من أن نفترض وجود **خلفية نظرية** تتيح لنا أن نتحدث، من خلالها، عن **الموجود**[2]؛ فمن الملاحظ، أن كلاّ من "اينشتاين وبوهر- في المثال السابق- يتناول أو يعالج نفس الواقع الاختباري بعينه، غير أن كلّ واحد منهما يتكلّم بألفاظ ومفاهيم أو تصورات نظرية تختلف عن ألفاظ ومفاهيم أو تصورات الآخر.

1 Heisenberg, *La partie et le tout*.

2 Largeault, Jean, Quine, *Questions de mots, Questions de faits*. Toulouze Privat, 1980, p.17note 14.

لقد أثبتت فلسفة العلم أن النظريات العلمية **مجرد مقاربات للواقع** حتى مال البعض إلى القول بأنها مجرد **مواضعات**، وذلك بصرف النظر عن كون **المواضعات لا تسود إلا حيثما يكون ثمة نقص في الوقائع**.

لقد جاء كواين بشيء جديد في فلسفة العلم يمكن أن نختصره في **"دعوى امتناع تقرير النظرية العلمية"** under-determinacy of scientific theory، للواقع الموضوعي، وهي دعوى تفيد أن النظرية العلمية لا تطابق الواقع تماما بقدر ما تقدم اختزالًا لهذا الواقع؛ ولذلك قد يجد المتعقِّبُ الفطِنُ لنسق التفكير عند كواين أن فلسفة العلم عنده تعاضد أطروحاته الأخرى من قبيل دعوى **النسبية الأنطولوجية** ودعوى **امتناع تحدد الترجمة**؛ وهي تشكل برمَّتها **نزعة مابعد-تجريبية**.

غالبًا ما يتم التغاضي عن مكانة فلسفة العلم في أعمال كواين، وذلك حين يتم تغليب فلسفة اللغة والمنطق على فلسفته في العلم، والواقع أن فلسفة اللغة عند كواين لا تنفكُّ عنده عن فلسفة العلم، وبذلك، فهو ينتمي إلى **فلاسفة العلم الذين شغلهم منطق التفكير العلمي**، فلم يأبهوا بتاريخه[1]؛ بخلاف ذلك، كان كيون في كتابه: **بنية الثورات العلمية**، **وساندرا لوجيي** Laugier في مقاربتها للكيفية التي نتصور بها الموضوع ونختبره.

أما كواين، فقد نحا نحوًا آخر حيث اشتغل على العلم من داخله غير آبه لا بالخلفيات الميتافيزيقية، ولا بالمعطيات التاريخية، ولا بالمسبقات الإيبيستيمولوجية، فجاءت دعاواه متوجهة بالنقد للنزعة الوضعية

1 Laugier, Sandra, "Signification et incommensurabilité : Kuhn, Carnap", Quine. *In Archives de Philosophie*, 66-3 - Automne 2003, Dossier : T.S.

وبالتحديد لمعتقديها، كما توجهت على النزعة التي تفرق بين العلم والفلسفة. ولذلك ندعي- من غير أن نعدم دليلًا- أن أطروحات كواين تظل، على أقل تقدير، يشد بعضها بعضًا حتى لا نكاد نظفر بأطروحة تهيمن على باقي أطروحاته.

من المعلوم أن كواين يتصف بنزعته **الطبيعيانية والسلوكية**، فقد ظلّ يقرن تنظيراته الفلسفية الذهنية بالوقائع المادية، ثم ما يلبث أن يثبت، مستندا في ذلك إلى دعوى امتناع تمحيص الإحالة inscrutabilité de la référence أن **هذا الواقع غير قابل للتمحيص**، ليقر للتوِ، أن **كل معرفة يجب أن ترتبط، مع ذلك، بالواقع.**

ولعل كواين يمثل، بهذا الموقف الملتبس ما يمكن أن نصفه **بما بعد النزعة التجريبية** Post-empiricism؛ وذلك حين قوّض ثوابت النزعة التجريبية وأثبت امتناع التفريق بين الصورة المفهومية والمضمون التجريبي scheme and content ، وحين هاجم الثنائية الشهيرة، أي ثنائية القضايا التحليلية والقضايا التركيبية.

2. النزعة الطبيعانية وفلسفة العلم:

لقد روّجت مدرسة فيينا مفهوم النزعة الفيزيائية physicalism الذي وضعه كارناب للدلالة على أن لغة علم الطبيعة physics أو الفيزياء هي التي تقرر لغة جميع العلوم. غير أن نزعة كواين الطبيعية اتخذت دلالة جديدة في سياق فلسفته. فكل الوقائع، في نظره، وقائع طبيعية قابلة أن ترد إلى الطبيعة بعون المنطق والتفسير السلوكي.

وأما طبيعانية كواين فتمثل منظورًا فلسفيًا، وليست تمثل لديه معتقدًا مذهبيًا؛ لأنه لا يؤمن بوجود فلسفة سابقة عن العلم؛ فهو يتشبث بنزعته الطبيعانية Naturalism ويسيِّد **مبدأ الفيزيائيانية** Physicalism في فلسفته في العلم، ومفاد هذا المبدأ أن العلم الشامل هو **علم الفيزياء**، فكيف تثبت هذه النزعة مع امتناع التفريق بين القضايا التحليلية والقضايا التركيبية؟ وكيف تصمد مع الحرج الذي تخلقه لدى كواين حين يدعي عدم إمكان الفصل بين الصورة المفهومية والمضمون الاختباري أو التجريبي؟

قبل الإجابة، ينبغي أن نقف عند مفهوم الطبيعانية عند كواين حيث يطلق على فلسفته في العلم أحيانًا الإبيستيمولوجيا الطبيعانية أو المطبوعة، وأحيانًا الطبيعانية الإيبيستيمولوجية، ولا يخرج فلسفته العلمية من دائرة العلم بل يعدُّها فصلًا من فصوله؛ أي أنها تنتمي إلى مجموعة العلوم الطبيعية؛ ومن هنا نجده يختلف عن كانط الذي ظل يبحث عن شروط إمكان المعرفة خارج نطاق العلم.

يرى كواين أن الفلسفة لا تتميز عن العلوم، وينبغي استيعابها بالاعتماد على أسس العلم ذاته، وليست تُستوعب خارجه خصوصًا علم الفيزياء؛ وهكذا، تسعى إيبيستيمولوجيا كواين إلى اعتماد منظورها الطبيعاني لتفسير الظواهر الذهنية والمعرفية من خلال الأسباب الطبيعية مشفوعة بالمبادئ والأسس العلمية دون الركون إلى المفاهيم والتصورات المجردة، أو تقديم التفسيرات المتعالية.

يمكن أن نهتدي إلى طبيعانية كواين وفيزيائيانيته لنستشفها من فلسفة العقل لديه، حيث يعترف بصعوبة ردّ المحمولات الذهنية إلى وقفه الطبيعاني من المعرفة؛ لكنه يعتبر أن الشبكة العصبية، والتفسير السلوكي للغة كفيلان بأن يصفا الاستعدادات القبلية لكل سلوك ممكن[1]. وههنا، نجد كواين يوافق السيكولوجيين الصيغيين أو الشكلانيين.

لقد سبق لكواين أن طرح سؤالًا بهذا الخصوص حيث تساءل عن الكيفية التي نصل فيها من شواهدنا الحسية إلى تشكيل نظرية عن العالم[2]؛ فكلمة كلب لا تنبح، بمعنى أن حواسنا حين تنتقل إلى مداركنا ونعبر عنها عن طريق اللغة، نجد أنفسنا أمام غموض يحفُّ بنا من جراء بنائنا للعالم Aufbau der Welt فليست الأشياء تعطى لنا من خلال حواسنا، بل هي مشتقة منها.

وههنا تطرح قضايا دلالية لم يفت كواين أن استشكلها؛ وهي تتعلق بالإحالة على الأشياء التي تجسدها دعوى امتناع تمحيص الإحالة التي عالجناها في الجزء الأول من هذا العمل، وامتناع تحدُّد الترجمة؛ والأطروحة التي يمكن أن نستحضرها هنا هي امتناع تحديد النظرية العلمية حيث تتبدى أهمية دعوى الشمولية التي تفيد أن المفاهيم الجزئية إنما تفهم من خلال النظرية العلمية في إطارها ووفقها.

1 Kumar, Prashant, "On Quine's philosophy of Mind", *Philosophia* Vol. 50, 2020, pp. 98- 99, https://doi.org/10.1007/s11406-021-00379-7

2 Quine, *The Roots of Reference,* 1973, Open court, La Salle, Illinois,

ومع ذلك، فلسنا نرى في ذلك حرجا لاعتبارين: أولهما أن هذه النزعة الطبيعانية - وإن كانت تلحظ اختلافات وتنوعات في النظريات العلمية - فإنها تأخذ ببعض الاعتبارات الأداتية والذرائعية. وثانيهما أن كواين ظل، رغم ذلك، يحرص شديد الحرص على واقعيته، فلا معنى عنده للتنظيرات العلمية التي تلغي وجود الوقائع الخارجية، ولا معنى عنده للاختلافات بين النظريات العلمية ما لم تقم على أساس اختلاف واقعي، وبالتالي طبيعاني/ فيزيائي.

يختلف"كواين عن فلاسفة العلم أمثال "**بوبر**" Popper و"**كيون**" Khun، و"**فايرباند**" Fayerbend و"**لاكاتوس**" Lakatos وغيرهم بكونه لا يعتبر فلسفة العلم **مجرد خطاب حول العلم وليست، بالتالي، ممارسة علمية** نجده يصرح في رده بهذا الخصوص على "سمارت" Smart قائلا:

"يقتضي الحل المثالي أن نرفض أن ندّعي وجود **فلسفة أولى** تكون، بصورة ما، سابقة عن العلم؛ إن نظرية المعرفة لتعني، في نظري، **العلم وهو ينطبق على ذاته**" ([1]).

ومن هنا، تختلف رؤية كواين عن التصورات الأفلاطونية الفيتاغورية القائلة بوجود أشباح للوقائع في عالم المثل، فليس قوله بأن مقاربتنا للواقع نسبية كفيلًا بأن يجعلنا نقول بأنه ما دامت المثالية تضايقنا فلنستبدل مكانها "**البنيوية**" طالما أن النزوع إلى المثالية يبدأ بمجرد أن نعتبر أن القضايا الخالية من الوقائع قضايا دقيقة.

1 "Epistemology, for me, is only science self applied". See Quine , "Reply to Smart" in *Words and Objections, Essays on the Work of W. V. Quine*. Edited by D.Davidson and Jaako Hintikka, Dordrecht-Holand, Reidel, 1969, p.292.

لقد رفض كواين **الفلسفة الأولى**، وجعل العلم جزءًا من الفلسفة، فهو يرى أن فلسفة العلم إن هي إلا ممارسة علمية من مستوى آخر غير مباشر. وبهذا يكون قد نزع عن فلسفة العلم كل افتراض مسبق لفلسفة فوقية تؤطرها، كائنة ما كانت هذه الفلسفة وضعية أم بنيوية أم موضعية أم ظاهرية.

يرى سمارت أن كواين قد تخلى عن موقف كارناب القاضي بالتفريق بين الفلسفة والعلم لأنه مثلما أبطل التفريق بين التحليل والتركيب، وألغى ثنائية الأسئلة الداخلية والأسئلة الخارجية لم يفرق بين "المبادئ العامة "المقولة" ومبادئ بنية اللغة وأطرها"[1].

وهكذا تبين أن **وجود الدلالة في العلم يضفي على النظريات العلمية طابعاً نسبيًا**. فقد يشتغل العلماء على ظاهرة واحدة وتكون نظرياتهم متكافئة تجريبيًا وغير متكافئة نظريًا. فكواين يماثل بين الطريقة التي يسلم فيها العالم بوجود الكترونات ونوترونات بالطريقة التي نسلم فيها، في تفكيرنا بالحس المشترك الطبيعي.

لقد قطع كواين مع الشروط القبلية للمعرفة مثلما قطع -كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل- مع كل فلسفة أولى سابقة عن العلم. وفي هذا النطاق، نجده لا يقر بكون الفلسفة تمتلك رؤية متميزة، أو أن لها وضعًا يجعلها فوق العلم، أو حتى خارجه بحيث تشرف عليه من علٍ.

فالنزعة التجريبية التي يعتنقها كواين لا تأخذ بكون العلوم التجريبية تمتلك أسسًا قبلية أو ميتافيزيقية تخوض فيها الفلسفة حين تتخذ العلم

1 Smart ,J.J, "Quine's philosophy of science", in *Words and Objections*, op, cit.p4.

موضوعًا لها. ذلك أن **المقاربة الفلسفية لأسس المعرفة العلمية لا تختلف عن العلم الذي تضعه هذه الفلسفة تحت مجهرها.**

لقد بينا أن فلسفة العلم عند كواين تختص بكونها لا تقيم أي فارق بين العلم والفلسفة. **فالفلسفة والعلم يتكاملان.** وهذا الموقف مناقض لما يزعمه كارناب الذي يعتبر أن الفلسفة مجرد **نشاط نظري فوقي** meta-theoretical activity . فكيف دافع كواين عن هذا الموقف؟ وما هي الحجج التي بكّت بها موقف كارناب وأشياعه؟

يظهر أن كواين قد ركز على اللغة باعتبارها تحمل مضمونًا نظريًا وشحنة انطولوجية في آن واحد. فالنظرية العلمية لا تستعيد الواقع، بل تنظمه في صورة مفهومية:

"هب أن الفيزياء انتقلت إلى وضع تنضاف فيه **النظرية الجزئية** particle theory **إلى نظرية الحقل أو المجال** Field theory، ولنسم **ناج** النظرية الجزئية **وناح** نظرية الحقل. لنفرض أنه لم يتم ذكر الحقول في **ناج**، ولم يتم ذكر الجزئيات في **ناح** (...) لنتمعن الآن الموقف الذي يكون فيه معتنق نظرية **ناج** ومعتنق نظرية **ناح** عندما يتناقشان بخصوص أهمية المفهومين (أي الجزئيات والحقول) في النظريتين. فلو طرحنا المسألة على هذا النحو، فسيتبدّى لنا أنهما سيتكلمان عن النظريتين **ناج وناح** معًا، ولو ناقشا معًا ما إذا كانت الحقول أو الجزئيات موجودة، فإنهما سيستعملان إما **ناج** أو **ناح.**

ومع ذلك، ستبرز مشكلة أخرى؛ لأن معتنق إحدى النظريتين قد يدّعي أن النظرية الأخرى تتضمن عبارات وجودية كاذبة وعبارات صادقة مسوّرة تسويرًا كليًا مع أنها فارغة. ومن هنا فإن معتنقي النظريتين معًا

سيصيبان إذن، عندما يعمدان إلى الإجراء **اللغوي الفوقي** لمناقشة أي العبارات من **ناج** و **ناح** تلزم عن عبارات أخرى. وعلى أي، فإنهما سيقران معًا بوجود العبارات وهذا وحده يمثل، بالنسبة لهما، أساسًا مشتركًا[1].

فالمناقشة التي تدور بين معتنق **ناج** و**معتنق ناح لا يمكن الفصل فيها بين الخلفية النظرية وما تلتزم به هذه النظرية انطولوجيا**، وبالتالي، فلن يكون خطابهما علميا فحسب أو فلسفيا فحسب، بل سيكون خطابًا علميًا وفلسفيًا في آن واحد.

لقد عبر كواين في كتابه: **الكلمة والشيء (1960)** عن رفضه الصريح للتفريق بين العلم والفلسفة. فلا يوجد بينهما - في نظره - فصل صارم، ولا اختلاف بيّن. ومن الملاحظ أن هذا الموقف ينبني لديه على إبطال التفريق بين التحليل والتركيب؛ **فلا فرق عنده بين المقولة والإطار، ولا بين النظرية والصورة المفهومية؛ وذلك لأن هذه المفاهيم تضم معنى واحدًا وهو تنظيم التجربة التي يشترط لها مراعاة البساطة والأخذ بالقيم التجريبية**[2].

ولهذا فإن **التصور الانطولوجي النسبي** يحضر في هذا المستوى كحلٍّ فلسفيّ باعتبار **أن الوجود هو قيمة المتغير وأن الموجودات لا تحظى بالوجود إلا من خلال خلفية نظرية تعطي للموجودات قيمًا داخل النظرية.** سيقول كواين بهذا الصدد **بمبدأ درجة الابتعاد عن التجربة:**

principle of remoteness from the data of experience.

1 Smart ,J.J, "Quine's philosophy of science" In: *Hintikka and Davidson* ed. p. 4.

2 Alcazar, "Epistimic Aims and Values in W. V. O. Quine's Naturalized Epistemology", *Philosophical Issues*, 3, Science and Knowledge, 1993. p. 316.

فالأعداد والمجموعات والفئات وما إلى ذلك من المفاهيم الرياضية والرياضية الفوقية meta-mathematics تكون **مجرد أمور مسلم بها (أي** مسلم بوجودها) **تمامًا على النحو الذي نسلم فيه بوجود الحركة والمادة والكتلة في الفيزياء العيانية macro-physics أو الذوات غير المدركة بالعيان في الفيزياء المجهرية micro-physics. فحتى نظرية المجموعات لم تكن في الأصل دراسة لأمور تعلو الطبيعة بل إنها مجرد جزء من فيزياء الذوات غير المدركة** non - perceptible entities.

وهكذا، فإن الكيفية التي يسلم فيها العالم بوجود الكترونات ونوترونات تماثل الكيفية التي نسلم فيها بوجود الأشياء والأحجام في الحسّ المشترك. ولعل امتناع التحدُّد هو الذي يفضي بنا إلى **مثالية شبيهة بمثالية بيركلي** Berkeley. غير أنه في الوقت الذي تكون فيه الأفكار التي يضعها العالم موضوعة بوعي ولأسباب معقولة ومعروفة، نجد أن موضوعات الحسّ المشترك الطبيعي تمتد إلينا في صور مفهومية مطوية في اللِّسان منحدرة إلينا من غابر الأزمان.

ومع ذلك، فإن كواين لا يقيم أي فرق بين اللغة الاصطناعية واللغة الطبيعية. فهما سيّان في تمثيلهما **للصورة المفهومية المناسبة** لكل منهما[1]. فكيف يتصور كواين فلسفة العلم إذا كان لا يقيم هذا الفرق في مستويات اللغة؟

1 Alcazar, "Epistemic Aims and Values", p. 5.

في تعقيبه على سمارت قال كواين: "إن المفتاح المعتبر عندي هو **رفض كل فلسفة أولى**" [1].

يجنح كواين إلى فلسفة للعلم تنظر في العلم سواء أكان رياضيات خالصة أو فيزياء باعتباره مستقلًا عن الملاحظة والتجريب. وهي رؤية لا يتضح لنا بُعدها إلا باستحضار دعوى **امتناع تحدد النظرية العلمية** فالعلم نظريات تقارب وقائع. وهذه **الوقائع ليست هي الوقائع المادية الخارجية، بل إنها وقائع مبنية ومنظمة في صورة مفهومية.** ولهذا فإن ما ينبغي أن ننظر فيه هو النظرية العلمية. وفي هذا الموقف اعتراض وجيه على النزعة الاختبارية الممتدة من إرنست ماخ Ernest Mach إلى رودولف كارناب.

"إننا نعتقد في وجود الالكترونات لأن النظرية الممحَّصة اختباريا تثبت لنا وجود الكترونات، ولكننا نعتقد أيضًا في وجود فئات لأن نظرية الأعداد الحقيقية تُعدُّ مطلبًا أساسًا في الفيزياء"[2].

كان كواين محقًا في بيان كون الفلسفة ليست وحدها مستقلة عن الملاحظة والتجريب، بل إن الرياضيات الخالصة تشاطرها هذا الوضع. ونجد أنه يجعل الفيزياء نفسها في نفس الوضع رغم ما تدعيه من اقترانها بالوقائع التجريبية.

يكفي للاستدلال على صحة هذا الموقف أن نذكر بأن العلماء ينظرون في الواقع وينشئون **أنساقًا نظرية متعددة تدعي كلها الموضوعية وتطابق جملة من الوقائع دون أن تتطابق فيما بينها رغم اشتراك موضوعها.**

1 Quine ,"Reply to Smart" *in Hintikka and davidson* (ed) 1969 ;Replies p .293 ff.

2 Smart,J.J. C., "Quine and philosophy of science" 1969 .op. cit .p.4.

فبأي معنى نتحدث عن ماصدقية العلم؟extensionality of science يبدو أن كواين لم يفرط في نزعته **الماصدقية** رغم دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية التي سنتناولها بعد حين. فهو يعتقد أن "لغة الحسّ المشترك المتعلقة بالاعتقاد، يمكن أن نضع مكانها التكلُّم بالماصدق عن **المحددات العصبية للسلوك** الذي نعتبره اعتقادًا أو ميلًا"[1].

يضرب سمارت المثال التالي: إن العبارات التي تتضمن "قابل للذوبان" يمكن أن نضع مكانها العبارات التي تتعلق "ببنية الجزيء" والغاية هي استبدال التكلم عن الاستعدادات، بالتكلم **عن البنية التحتية** Underlying Structure ويعترض سمارت معتبرًا أن هذا لا يتماشى مع الكثير من الاستعدادات؛ هب أن العبارة "تتوفر الالكترونات على شحنة" نقرأها:

^س^ص(إلكترون(س)^بروتون(ص)) à ((س) تجذب (ص)).

وتفيد أن كل إلكترون على استعداد لجذب البروتون؛ وبالتالي، فقد نصوغ هذه العبارة على نحو آخر يفيد أنه كلما كانت (س) إلكترونًا و(ص) بروتونًا فإن (س) يتوفر على الاستعداد لجذب (ص)؛ غير أن الشك يعتري هذا الأمر إذا ما استحضرنا امتناع تحديد المعنى وامتناع تمحيص الإحالة من جهة، مع امتناع تحديد النظرية العلمية وامتناع تحدد الترجمة، من جهة أخرى.

فقد جاء في مقالته لسنة 1970:"**في بيان أسباب امتناع تحدد الترجمة**"[2] أن النظرية العلمية تظل ممتنعة عن التحديد حتى ولو أخذنا

1 ² Smart, "Quine and Philosophy of Science", p. 12 .

2 Quine ,"On the Raison for Indeterminacy of Translation" *Journal of philosophy*, 1970,p.179.

بكل الملاحظات الممكنة... ويمكن أن تتغير النظرية حتى ولو ظلت كل الملاحظات الممكنة ثابتة. كما يمكن أن تكون النظريات الفيزيائية غير متطابقة فيما بينها، وتكون، مع ذلك، مطابقة لكل المعطيات الممكنة ولو أخذنا المطابقة بالمعنى الواسع. وبكلمة واحدة، يمكن أن تكون النظريات غير متطابقة منطقيًا ومتكافئة تجريبيًا"[1].

لقد اتخذ كواين من دعواه هاته **منطقًا لدحض النظرية التحقُّقية** verificationism باعتبارها تسعى لإثبات وجود إمكانية لرد العبارات إلى صورة منطقية وإلى محتوى تجريبي يطابق واقعة مادية ما مطابقة تامّة. ففي "**معتقدًا النزعة التجريبية**" نجده يعترض على كلِّ صنف من أصناف النظرية التحقُّقية باعتبارها تحاول أن تقدم معنى لعبارات شخصية Individuel sentences.

وبخصوص دور الإيبيستيمولوجيا عند كواين، فإنه لا يرى فيها رؤية فلسفية نقدية لمناهج ونتائج العلوم، بل إنها تخضع لمنطق العلم ذاته، فحتى أزمات العلم لا يحلها إلا العلماء من خلال اشتغالهم العلمي الصرف. ويستعير كواين مثال نوراث عن العلم والاشتغال العلمي حيث يشبه نوراث أزمة العلم بالوضع الذي يوجد عليه ربّان السفينة التي أصابها عطب فيكون عليه أن يصلحها وهي في عرض البحر.

1 فضلنا، في البداية، استعمال دعوى "امتناع تقرير النظرية" الذي يفيد أن النظرية لا تستطيع أن تقرر بشأن أية عبارة داخلها وتعيين ما ينبغي أن تراجعه أو تعدله أو تغيره. فالتجريب يكشف عن وجود خلل ما في النظرية، غير أنه لا يعين بالذات العبارة التي ينبغي معالجتها من قبل العالم لكننا عزفنا عن ذلك فأبقينا على "امتناع تحديد النظرية العلمية " كمقابل. Under-determination of scientific theory لكونها أبلغ دلاليًا على تبليغ فحوى الدعوى.

لا يأخذ كواين بمقولة القبلي a priori كنتيجة منطقية لرفضه القاطع، ونقده اللاذع لثنائية التحليل والتركيب التي عالجناها في الجزء الأول من هذا العمل[1]؛ فهو يرى أن رؤيتنا لنسق عالمنا system of the world أو نظريتنا التي يتشكل فهمنا في نطاقها ووفق منطقها، تبقى ممتنعة عن التحديد؛ وذلك لأن نسقنا للعالم أو نظريتنا إنما تواجه التجربة بصورة شمولية holistic.

وهذا الموقف من النظرية العلمية يعطي لكواين فرادة في التعاطي مع فلسفة العلم حيث لا يجعلها لا تستقل بذاتها بل تغدو ترجمانًا للعلم وهو ينطبق على ذاته؛ ونحن حين نبحث سبب اعتناق كواين لطبيعانية المعرفة، نجد أن ما ساقه إلى نقل الاعتبار جهة الأنطولوجيا هو الوضع القلق الذي ألفى عليه الإبيستيمولوجيا، فضلًا عن الشك الذي اعتراه من جراء ما لاحظه من وجهة نظر دلالية - منطقية من امتناع تمحيص الإحالة، وامتناع تحدُّد الترجمة، ومن وجهة نظر إبيستيمولوجية من انعدام تحديد النظرية العلمية.

فلنبسط القول في دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية:

3. امتناع تحدد النظرية العلمية:

تفيد دعوى **امتناع تحدد النظرية العلمية** أن النظرية العلمية الفيزيائية لا تكون محددة بكل الملاحظات الممكنة؛ ولهذا نجد **أن النزعة التحقُّقية التي نادت بها حلقة فيينا تفشل في إثبات المعيار التحقُّقي**

1 مشروح،إبراهيم،**كواين: ما بعد النزعة التجريبية، الدلاليات وفلسفة اللغة**، جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية، ، ط2، 2024، ص،231 ومايليها.

للمعنى. فحتى ولو اعترفنا بما قال به **بيرس**Peirce Charles Sanders حين اعتبر أن معنى عبارة ما إنما يعود إلى الكيفية التي تشهد على صدقها، فقد نقول- مع كواين- أن هذا المنظور لا يقوم دليلًا على صحة النظرية التحقُّقية للمعنى.

فلو أخذنا عبارة ما نحو: "يتوفر الإلكترون على شحنة"، فإن هذه العبارة لا تتكون فقط من صورة منطقية ومحتوى تجريبي، بل **إنها تكون مسنودة بخلفية نظرية.** فلا معنى لهذه العبارة إلا في **شمولية** holism **النظرية؛ ولهذا السبب دافع كواين على النظرية الشمولية للتحقق (أو التحقق الشمولي** Holistic verification theory **)**. وقد لعبت هذه الدعوى دورًا كبيرًا في فلسفة كواين تسندها الدعاوى الأخرى.

حين قام كواين بصوْغ دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية، انتهى إلى إثارة مسألة علاقتنا بالواقع: هل تتوقف على التحقق؟ وتحضر هنا دعوى أخرى تعاضد امتناع تحدد النظرية وهي دعوى امتناع تحديد الترجمة Indetermination of translation التي تتلخص في عدم وجود ترجمة واحدة ووحيدة للغة ما إلى لغة أخرى، كائنة ما كانت. وهذا يدل على عدم تحدد الترجمة تمامًا كما هو حال النظريات العلمية التي تختلف من حيث منطلقاتها الإبيستيمية، وإن كانت تعالج نفس الموضوع.

ثمة العديد من الترجمات من لغة أخرى إلى لغتنا تكون متكافئة تجريبيا؛ بيد أنها تتعارض فيما بينها؛ ومن هنا يعتبر كواين أن الدلالة عبارة عن **أسطورة**؛ فهو حين أقحم الأنثروبولوجيا في فلسفة اللغة ليثير بذلك جدالًا واسعًا بين فلاسفة من مجايليه وممن يليهم أمثال كيون وديفيدسن

وورورتي، إنما رام توكيد ضرب من الشكية سرعان ما سيتبدد عند بسطه لأطروحتيه: امتناع تحدد النظرية العلمية وامتناع تحديد الترجمة.

هناك تداخل بين دعوى امتناع تحديد النظرية العلمية وامتناع تحدد الترجمة صاغه كواين على النحو التالي:

"اعتنقت حلقة **فيينا** النظرية التحقُّقية للمعنى، غير أنها لم تأخذها مأخذ الجدّ، فلو اعترفنا مع بيرس بأن معنى عبارة ما يعود إلى ما يمكن اعتباره شاهدًا على صدقها، ولو اعترفنا مع ديوهيم Duhem بأن العبارات النظرية تتوفر على بداهتها لا باعتبارها عبارات مفردة، بل باعتبارها مجموعات واسعة داخل النظرية، فإن امتناع تحدد ترجمة عبارات النظرية سيعتبر نتيجة طبيعية[1].

ولكي نفهم جيدًا ما جاء في هذا السياق، ينبغي أن نبيّن باختصار المستفاد مما سيعرف بالتحقق الشمولي عند كواين المستمد من فكرة ديوهيم؛ ويتعلق الأمر بالأطروحة الشهيرة: أطروحة ديوهيم-كواين Quine-Duhem thesis.

تفيد أطروحة ديوهيم-كواين؛ وهي أطروحة إبيستيمولوجية أثارت نقاشات عريضة في فلسفة العلم خصوصا في تعارضها القوي مع أطروحة كارل بوبر Karl Popper أن النظرية العلمية لا تتحقق إلا بصورة شمولية، أي أن تكذيب فرضية مفردة ومعزولة لنظرية علمية معينة أمرٌ مستحيل؛ لأن التفنيد أو التكذيب لايتوقف على النظر في فرضية مستقلة عن باقي الفرضيات التي تقوم عليها النظرية العلمية.

1 Harman, Gilbert; "Meaning and theory" in *Robert W.Shahan and Christopher Swoyer*; op .cit. p.5

لقد انتقد كواين بشدّة مفهوم المعنى **والترادف المعرفي** بعد أن أبطل مفهوم التحليلية. ونتيجة **لذلك رفض النظرية التحققية للمعنى انطلاقا من دعوى شمولية التحقق التي بيّنا أنه بلورها من خلال كل من ديوهيم وبيرس**. ومن المعلوم أن **نظرية التحقق** ظلت أساسًا من الأسس التي قامت عليها النزعة التجريبية.

لقد شكلت أطروحة ديوهيم -كواين منقلبًا على النظرية التحققية في صيغتها الأصلية، كما جسدت منعطفًا نقديًا في مواجهة أطروحة قابلية التبكيت أو التكذيب التي جاء بها بوبر. فمن النتائج الرئيسة للأطروحة المذكورة أنها بيّنت أن التحقق من نظرية علمية لا يستند البتة على المنظور الجزئي، وإنما يقوم على شمولية التحقق أو شمولية الإثبات confirmation holism.

لقد كتب ديوهيم عن الواقع الذي يوجد فيه عالم الطبيعية أمام "**محكمة**" التجربة، فبين في كتابه: **النظرية الفيزيائية: موضوعها وبنيتها**؛ وقد كان واضحًا ودقيقًا في إحدى فقرات هذا الكتاب ما يلي:

"عندما تكون التجربة متعارضة مع تنبُّؤاته [أي تنبؤات عالِم الطبيعة]، فإنه يشعر بأن فرضية واحدة على الأقل من بين الفرضيات التي تشكل هذه المجموعة غير مقبولة ويجب تعديلها، غير أن التجربة لا تعيّن الفرضية التي يجب تغييرها". ويضيف دوهيم قائلا: "لا يستطيع عالم الطبيعة على الإطلاق أن يُخضع للمراقبة التجريبية فرضية معزولة، ولكنه يستطيع، فقط، أن يخضع لها مجموعة من الفرضيات"[1].

1 Duhem, Pierre, *La théorie physique: son objet et sa structure*, Paris,1906 p. 214.

بإمكاننا الآن أن نحدد **شمولية كواين المعتدلة** ضد مبالغة كارناب والوضعيين المناطقة في ادعاء إمكانية رد العبارات إما إلى التجربة وإما إلى اللغة المنطقية بالأخذ بثنائية التحليل والتركيب. وذلك باعتبارٍ مفاده أن القضية التجريبية تتشكل من مضمون تجريبي وصورة منطقية، وأن التحليل المنطقي يقصي كل الزوائد التي تشوب القضية العلمية.

لقد دحض كواين هذه الدعوى، وفنّد هذه الثنائية التي تفرق بين التحليل والتركيب، كما بين في اعتراضاته امتناع تحدد المعنى وامتناع تمحيص الإحالة الدعويين اللتين تعرضنا لهما في الجزء الأول من هذا العمل.

يمكن أن نعتبر أن الشمولية الدلالية عند كواين تُقَوِّي أطروحة ديوهيم، فهي تسدُّ مسدَّ الاعتقاد في تفريقٍ مزعوم لا سند له رغم جهود كارناب المضنية في تنسيق لغة العلم في بناء منطقي للعالم.

يرى بول غوشيه Paul Gochet أن "الشمولية الدلالية، أي إثبات أن **وحدة المعنى هي العلم برُمّته** هي الدعوى الأكثر أصالة من بين دعاوى كواين وأكثرها إرباكاً (...) وتصدر هذه الدعوى عن تأليفه بين دعويين إثنين سبق أن أشرنا إليهما في الجزء الأول، وهما:

- **الشمولية المعرفية** Holisme épistémologique لديوهيم، أي تلك الدعوى التي يكون بمقتضاها أننا لا نتحقق من أية فرضية معزولة على الإطلاق، بل إن كل مراجعة تقتضي معاملة النظرية كجسم واحد؛

- **النظريـة التحققـية للمـعنى** Théorie vérificationniste de la signification لـكل من تشارلـس سنـدرس بـيرس Ch. S. Peirce وموريتـس شـليك Moritz Chlick الـتي يكـون بمقتضاهـا معنى عبارة مـا كامنـا في طريقـة التحقـق منهـا"[1].

ومن المعلوم أن كواين لم يأخذ بهذه النظرية لقوله بالشمولية المعرفية، ولاعتراضه على قابلية التحقق من منطلق ثنائية التحليل والتركيب.

لقد انتهى كواين إلى القول **بشمولية التحقق وبشمولية المعنى** ضاربًا صفحًا عن التفريق بين التحليل والتركيب وعن التصور الوثوقي المتمثل في النزعة الاختزالية، يقول بهذا الصدد:

"والمعتقدان معًا متماثلان، حقًا، من حيث الأصل. لقد انتهينا بعد تأمل طويل إلى أن صدق العبارات يتوقف، بوضوح، على **اللغة وعلى الوقائع الموجودة خارج اللغة**؛ ولاحظنا أن هذا الظرف البين يحمل في طياته، شعورا، ليس منطقيًا بل جد طبيعي، بأن صدق العبارة قابل، بطريقة أو بأخرى، لأن يختزل في مكون لغوي ومكون اختباري"[2].

ولا يقوم هذا الموقف النظري دليلًا على اعتناقه للنظرية التحققية للمعنى، بل إنه كان يسعى- بعد رفضه لثنائية التحليل والتركيب- إلى بناء **نزعة تجريبية بدون وثوقيات** بحيث سيتجاوز ما ظل ـ كارناب واقفًا عنده بحيث لم يلتفت، فيما يرى كواين، إلى ضرورة هجرة المعتقدين التجريبيين والانتقال إلى '**واحِدِية منهجية**'.

1 Gochet, *Quine en perspective*, op. cit.,1978, p. 23.

2 Quine, op. cit., p. 41.

لقد عبر كواين عن في مقالته الشهيرة: معتقدًا النزعة التجريبية عن فكرة يمكن أن نعتبرها مذهبه القاضي بوحدة التجربة وشمولية التحقق في نطاقها: "إن وحدة المعنى التجريبي هي شمولية العلم".[1]

تعني شمولية الإثبات في فلسفة العلوم ما اعتبر كواين أننا لا يمكن أن نثبت عبارة معزولة أو ننفيها اختباريًا أو تجريبيًا إلا في نطاق زمرة من العبارات التي تحكمها الفرضيات الأساسية للنظرية العلمية.

تقضي النزعة التجريبية الآخذة بالنظرية التحققية للمعنى بكون معنى قضية ما إنما يكمن في المنهجية التي نثبت بها هذه القضية أو ننفيها تجريبيًا. وتخرج عن هذا التحديد القضايا التحليلية [2]. وانطلاقًا من هذا التحديد اعتبرت النظرية التحققية للمعنى أن قضيتين تكونان مترادفتين إذا وفقط إذا كانتا متشابهتين في المنهجية التجريبية لإثباتهما أو نفيهما.

ولهذا ستقول النظرية التحققية **بوجود معنى تجريبي وترادف معرفي** Cognitive synonymy. فلو تغاضينا- حسب كواين- عن اتخاذ المعنى كذات مجردة، وعن تعريف الترادف أو تكافؤ المعنى، فإننا سنجد أن النظرية التحققية المنطقية تختزل القضية في مكونين إثنين:

(أ) مكون منطقي (يكمن في الصورة المنطقية)؛

(ب) مكون تجريبي أو (محتوى تجريبي).

1 Quine, "Two dogmas of Empiricism". In: *From a logical Point of View* . Op. cit., 1953, p.42.

2 Ibid. p. 37.

وعلى هذا الأساس تفرق النظرية التحققية بين القضايا التحليلية والقضايا التركيبية لتفصل بين اللغة أو الصورة المنطقية والمحتوى أو المضمون التجريبي. وهي دعوى أبطلها كواين لرفعه للتفرقة بين التحليل والتركيب كما بيناه في موضعه.

لقد دحض كواين المعتقدين التاليين:

1) **المعتقد التجريبي الأول** ويتلخص في وجود فرق أساسي بين الحقائق التحليلية والحقائق التركيبية حيث توجد معان مستقلة عن الوقائع المادية والأخرى متصلة بها.

2) **المعتقد التجريبي الثاني** ويقضي بنزعة اختزالية تفيد اعتقاد التجريبيين في كون كل قضية تكافؤ بنية منطقية تشمل حدودًا تحيل على التجربة المباشرة.

وهكذا، فإن امتناع تحدد النظرية العلمية يكشف عن خطأ هاذين المعتقدين. ذلك أن التفرقة لا تسعفنا- على سبيل المثال- في التعرُّف على أية قضية ينبغي أن نفحصها في حالة عجز نظرية فيزيائية ما عن تفسير واقعة ما. فحينئذ لا نجد أن القضايا التي صاغتها النظرية تقابل الوقائع الواحد بالواحد **بل نجد أن كل قضية لا تفهم إلا انطلاقًا من النظرية في شموليتها.**

ولهذا يتبنّى كواين انطلاقًا من دعوى شمولية النظرية، ودعوى امتناع تحدد النظرية العلمية **النظرية الشمولية للتحقق**. وبناء على هذه النظرية يكون لنظريتين نفس المحتوى إذا كانتا متكافئتين تجريبيًا، أي أن محتوى صيغ القضايا المتضمنة في كل نظرية على حدة متماثل. فإذا ثبت لنا

ذلك حكمنا بكونهما متكافئتين تجريبيا. غير أننا نقع في امتناع التحدد لأن النظريتين قد تطابقان التجربة دون أن تكونا متكافئتين. هناك إذا ضربان من العلاقات القائمة بين الملاحظات والنظريات:

(أ) ضرب تكون فيه الملاحظات بمثابة شواهد للنظرية؛

(ب) ضرب تكون فيه الملاحظات مطابقة للنظرية.

وبناء على هذين الضربين هناك مدلولان **للتكافؤ التجريبي** Empirical equivalence يسوِّغهما هارمَنHarman كما يلي:

1. تكون **نا1** و **نا2** نظريتين متكافئتين تجريبيا إذا كانتا تقومان سويًا على نفس الشاهد (على نفس الملاحظة).
2. تكون **نا1** و **نا2** نظريتين متكافئتين إذا وفقط إذا كانتا تطابقان معًا نفس الشاهد (أي نفس الملاحظة) [1].

ومع أن كواين قد يعترض على هذا التقسيم إلا أنه بين أننا لو أخذنا صيغة نظرية واخترنا حدين من حدودها نحو "إلكترون" و "جزيء" (وهما مفهومان لا يظهران حسب كواين في عبارات عيانية لأنهما مفهومان نظريان)، فإننا عندما نغير صيغتنا النظرية باستبعاد هذين المفهومين، فإن الصيغة النظرية الجديدة ستكون غير متطابقة منطقيا مع الصيغة القديمة؛ وبالتالي، فإننا سنميز حينئذ بين مدى مطابقة النظريتين للواقع (تطابق **نا1** و**نا2**) والتكافؤ المنطقي بينهما.

1 Harman, Gilbert, "meaning and theory".op .cit.p.10.

ولو قارنّا هذه الحالة بما جاء في دعوى امتناع تحدد الترجمة، فسنجد أن الكرّاسات التي يقدمها المترجمون قد تطابق عبارات القوم المنقولِ إلينا كلامُهم دون أن تكون هذه الكرّاسات متطابقة فيما بينها، وكذلك هو شان النظريات العلمية. فقد تقارب نفس الوقائع ولا تكون صيغ قضاياها متطابقة. **إنها دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية وقد التحمت بدعوى امتناع تحدد الترجمة.**

فما هي، إذن، مهمة الدلاليات إذا ما تخلت عن تحليل النظرية العلمية وتمحيص محتواها التجريبي وصورتها تحليلًا منطقيًا؟

تستجيب **الشمولية الدلالية لمهمة أعمق من التحليل الذي اعتمدته التجريبية المنطقية.** فقد أبطلت التفريق بين التحليل والتركيب، كما أبطلت النزعة الاختزالية. وهكذا بينت أن **الشمولية** تكمن في البحث عن **نظرية مطابقة للمعنى تلتزم بكل العبارات ذات الصورة س تعني ص؛ لكنها لا تأخذها معزولة، بل تتناولها في تعالق بعضها ببعض داخل النظرية.**

تتحدد **النظرية الشمولية للتحقق** في اعتبار معنى عبارة ما **متحققًا داخل النظرية بكل ما تلتزم به هذه النظرية من قضايا متداخلة فيما بينها ومقاربة لمعطيات التجربة.** وتفلح النظرية الشمولية للتحقق في اجتنابها **لمفاهيم المواضعة** concepts of convention والقاعدة اللغوية، والممارسة اللغوية وما إليها من مفاهيم[1] لتلتحم بامتناع التحدُّد.

1 Davidson, Donald, *Inquiries into truth and Interpretation,* Clarendon press Oxford U.Press, 1984,p.171.

تلتبس دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية بامتناع تحدد الترجمة وقد علق كواين عن هذا الالتباس قائلًا:

"من الناحية المعرفية، نجد أن امتناع تحدد الترجمة وامتناع تحدد النظرية الفيزيائية يلتبسان. فمن وجهة نظر انطولوجية، نجدهما يختلفان بسبب **نزعتي الفيزيائية**، وبسبب نفوري من الواقع الموضوعي. وذلك يظهر، ببساطة، في كون كراسة الترجمة **لا تكثرت بكل الأوضاع والمواقف والحيثيات الجزئية للعالم**. وليس عدم الاكثرات هذا مسموحا به على نحو ما يُسمح بذلك في مجال الرياضيات؛ وذلك لأن **اللغة تنتمي بخلاف الرياضيات، إلى عالم طبيعي بوصفها سلوكا لنوع من الثدييات**"[1].

لقد بحثت فاصالو Vassallo دعوى كواين وسعت إلى إبراز مظاهر عدم اتساقها. وذلك من خلال فصول كان مدارها حول ابستيمولوجيا كواين ومسوِّغات استبدال دعواه بدعوى مضادة. فبعد أن استعرضت في الفصل الأول مقالات حول الابستمولوجيا تطرقت، في الفصل الثاني، لكواين والنزعة الشكية مبرزة عجزه عن مجاوزة الشك من أجل تأسيس المعرفة. ونحن لا نشاطرها ما ذهبت إليه من قولها بأن كواين وهو ينتقد النزعة الشكية لا ينفك يقود إليها للسببين الآتيين:

أولًا: لأن دعوى كواين ليست شكية بقدرما تدعي امتناع التحدد وبالتالي فإنها تقول بإمكانية المعرفة إلا في نطاق الشموليةHolistic theory of Knowledge ؛ وذاك ما انتهت إليه مقالته" **عقيدتا النزعة التجريبية**" كما بيناه في موضعه.

1 تصريح خص به كواين بول غوشيه، انظر:.Gochet, *Quine en perspective*, 1978,op. cit

فإذا كان كواين قد راجع كثيرًا من الأولويات التي سلمت بها نظرية المعرفة التقليدية وخلخل ثوابتها، فإنه لم ينته، مع ذلك، إلى نزعة شكية فالقول بامتناع التحدد في الترجمة ونسبية الانطولوجيا ودعوى امتناع تحديد المعنى وامتناع تمحيص الإحالة كلها دعاوى تفيد ما يقتضيه كواين من ضرورة استبدال النظرية التقليدية بجعل **الإبستيمولوجيا مستوعبة داخل العلم الطبيعي الذي يبحث صلة جهازنا العصبي بالعلم الواقعي المحيط بنا بعيدا عن كل فلسفة أولى مزعومة.**

وثانيًا: لأن دعوى كواين - وهي تسعى إلى استبدال الابستيمولوجيا التقليدية بالسيكولوجيا [خصوصًا النزعة السلوكية Behaviorism] باعتبارها فصلًا من العلم الطبيعي - تكون قد تخلصت من الميتافيزيقا النظرية كما تخلصت، في نفس الوقت، من الدعوى الوضعية القاضية بفصل فلسفة العلم وبالتالي الإيبيستيمولوجيا عن العلم الطبيعي لتصير الفلسفة بدورها مجرد نشاط فكري حول العلم.

وفضلًا عن تبني كواين للسلوكية التي ربطت المعنى بالمعطى الواقعي، كان تأكيد كواين على **علوم المعرفة** cognitive Sciences، وعلى البحوث الجارية في الجهاز العصبي البشري النورولوجيا neurology وغيرها من المجالات ليقود بالذات إلى إبطال دعوى فصل الفلسفة عن العلم ليجعل **السيكولوجيا فصلًا من فصول العلم الطبيعي**، وبالتالي **ستغدو السيكولوجيا فصلًا من العلوم الطبيعية بوصفها علمًا وصفيًا يصف العلاقات السببية القائمة بين المدخلات الحسية** Sensory inputs **ومعتقداتنا** بحيث لا تقود إلى تقدير يفيد أن معتقداتنا بخصوص هذه العلاقات السببية صحيحة. وعلى هذا الأساس تتبدد كل الدعوى التي ترمي ابستيمولوجيا كواين بوقوعها في النزعة الشكية.

تواجه فاصالو هذه الحجة بزعمها أن كواين- وهو يدعى أن " الشاهد يكون هو المعيار بالمعنى الذي نكون فيه بمجرد أن نتوفر على شاهد للنظرية قد توفرنا، في نفس الوقت، على مسوِّغات معرفية جيدة لكي نعتقد أن النظرية صادقة[1]- يقع في النزعة الشكية عندما يدعي أننا لا نعرف كيف يرتبط هذا الشاهد بالنظرية لامتناع تحدد النظرية ولكوننا لا نقابل الواقع مقابلة مطابقة.

إن ما تزعمه فاصالو هنا متناف مع دعوى شمولية النظرية العلمية التي تكربالبطلان على ادعاء فاصالوسقوط كواين في النزعة الشكية. فنحن نعرف العالم الخارجي من خلال النظرية والنظرية تحمل شحنة انطولوجية وشحنة لغوية، ولكن ليس ثمة أي معياريمكن أن نفصل فيه لغتنا عن الوقائع التي نتكلم عنها في النظرية العلمية؛ ومع ذلك، فهذا لا يقوم دليلًا على الوقوع في النزعة الشكية.

هب أن كواين سمح لنا بأن نفحص ما إذا كنا نعرف العالم الخارجي، فإلى أي حد، تتساءل فاصالو، تختلف ابستيمولوجيته عن ابستيمولوجيا ديكارت؟ تجيب فاصالو بأن ديكارت وهو يسعى إلى تبرير معتقداتنا في صورة قضايا تجريبية لا ينتهي إلى هذه القضايا التجريبية ذاتها، بينما كواين يقدم تبريرًا وهو يجتنب تأسيس المعرفة على معطيات الحسّ ولا على الأفكار البسيطة ولا المدركات... إنه يقع في التسلسل عندما "يستعمل العلم من أجل تبرير العلم"[2].

1 Vassallo, *La naturalizzazione dell epistemologia*, revised by mario trincheres, 1978, p.37 cité dans *History and Philosophy of logistic* .Op .cit , p164.

2 Vassallo, *La naturalizzazione dell'epistemologia*, p. 37, cité dans *History and Philosophy of Logic*, op. cit., p. 164.

أعتقد أن إشكال سقوط كواين في التسلسل لا مبرر له في هذا السياق، ثم إن مقاربة ديكارت مفارقة لمقاربة ديكارت الذي رام إثبات وجود العالم في المقال السادس من تأسيسه للفلسفة الأولى التي تكون خلفية لكل معرفة ممكنة؛ أما كواين فقد أعرب غير ما مرة عن نبذه المطلق لكل فلسفة أولى فموقفه الطبيعاني من المعرفة يحول دون ادعاء فاصالو، فلا يقع في التسلسل لأن الأسئلة حول المعرفة لا تخرج من دائرة اشتغال العلماء بإنتاجها وتطويرها.

وبالتالي، فإن الفلسفة لا تخرج عن هذه الدائرة، بل تظل في نطاقها على درجة أكثر تجريدًا من القضايا التي يطرقها العلماء، فلا تسلسل حين نسائل العلم من الداخل ونحن نبتغي أن تكون إبيستيمولوجيتنا مظهرًا من مظاهر انطباق العلم على ذاته.

4. الإيبيستيمولوجية المطبوعة والنزعة الشكية

تمثل أطروحة المعرفة المطبوعة، أو طبيعانية المعرفة مقاربة فلسفية خاصة للإيبيستيمولوجيا تفرد بها كواين، ومفادها أن المعرفة، وخصوصًا المعرفة العلمية، تشكل فصلًا من فصول المباحث العلمية، وأن **المقاربة الفلسفية لأسس المعرفة العلمية لا تختلف- كما أسلفنا- عن العلم الذي تضعه هذه الفلسفة تحت مجهرها.**

وهكذا، يجب أن نتعاطى مع فلسفة العلم من داخل الاشتغال العلمي، بل يجب أن تتولى العلوم شأن القضايا الفلسفية التي يفرزها النشاط العلمي. وذلك بدل الانغماس في الفلسفة التأملية المعزولة عن الممارسة العلمية التي تسائلها من الخارج.

يروم كواين أن يجعل الإبيستيمولوجيا تحت مجهر العلوم الطبيعية؛ وهو هنا يجعلنا نستحضر الاجتهادات التي أضحت تشهدها فلسفة علم الأعصاب التي جاءت في سياق صارت تشهد فيه القضايا الإبيستيمولوجية والفلسفية حياة جديدة في أوصال العلم ذاته.

فمع تطور البحوث العصبية، انبجست بعض جوانب الإجابة عن مسائل فلسفية؛ وهكذا مع الدراسات العصبية المعرفية cognitive والحوسبية computational حصل نوع من تعدي علم الأعصاب والمعرفيات إلى المسائل الفلسفية التقليدية، والقضايا المرتبطة بالتساؤلات ميتافيزيقية؛ حيث اجتاحت النورولوجيا الفلسفة لتقدم أجوبة عن طبيعة الوعي البشري، وسلوكياته وتصرفاته، وحول شروط المعرفة، وحول المعيارية...إلخ؛.

لقد نضجت البحوث في الخلايا والجزيئات، وفي علم الأعصاب السلوكي behavioral neuroscience بعد أن نشطت التجارب على الحيوانات، فأدى ذلك إلى انفتاح مجال علم الأعصاب المعرفي على أطروحة ضمنية مفادها أن الاكتشافات التجريبية عن بنية ووظيفة الدماغ brain structure and function تقترح مقاربة ذات طرائق "طبيعانية" من شأنها أن تزودنا بتفاصيل علمية دقيقة قد تتجاوز الاعتبارات الفلسفية المجردة[1].

ولا ننسى أن طبيعانية كواين وإبيستيمولوجيته لا تخرج عن هذا المناخ الذي ساد في النصف الثاني من القرن العشرين، إلى جانب الانتشار

1 *Stanford Encyclopedia of Philosophy*, "The Philosophie of Neuroscience",https://plato.stanford.edu/entries/neuroscience/#toc
- John Bickle, *The Oxford Handbook of Philosophy and Neuroscience* , New York: Oxrord University Press. 2009.

الكبير الذي عرفته السلوكية مع رائدها بروتوس سكينر Skinner. ولذلك لا يمكن أن نزج بنزعة كواين الطبيعانية في نزعة شكية تصدر عن سوء فهم لدعواه النسبية.

ومع ذلك، فقد دعانا كواين، في مقالته **"الابستيمولوجيا المطبوعة"**، إلى الكفّ عن أن "نحلم باستنباط العلم من الملاحظة"[1]، فهل يقود انعدام وجود معيار نعاير به معرفتنا بالعالم الخارجي إلى نزعة شكيّة خالصة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف نبرر معتقداتنا؟ وكيف نميّز معتقداتنا عن المعرفة؟

تنتهي فاصالو إلى إقحام دعوى كواين في **النزعة الشكية** لتعتنق بدورها منظورًا قضويًا هو أقرب إلى النزعة الاسمية بدعوى أن ديكارت قد برّر معتقداتنا في القضايا التجريبية دون أن يتخذها أساسًا للمعرفة، فإذا كان الأمر كذلك، فإنها قد وقعت في الخُلف بينما تكون الابستيمولوجيا الطبيعية قد اجتنبت تناول المعرفة خارج دائرة المعرفة، وبالتالي أفلتت من دائرة الشكّ، وهي تقرن المعرفة بالعلم الطبيعي الذي يحتوي من بين فروعه السيكولوجيا.

لقد محصت فاصالو موقف كواين من التحقق ومن تبرير النظرية، وساءلت دعواه من جهة إبطال **المعيارية المعرفية** Normativity of Knowledge من قبله، وانتهت إلى إبراز عدم اتساق الدعوى ووقوعها في الشكية. وقد خلصنا إلى أن حججها مردودة لكونها استندت على الشك الديكارتي الذي ينطلق بدوره من **فلسفة أولى**؛ وذاك ما يرفض كواين- كما مرَّ بنا- أن يؤسِّس عليه أيّ معرفة كائنة ما كانت.

1 Quine, "Epistemology naturatised" in *ontological Relativity and other Essays* .op. cit.p.76.

وخلاصة القول أن دعوى **الابستيمولوجيا الطبيعية** ترتبط بمنطلقاته الطبيعانية التي تجعل العلم الطبيعي يستوعب نظرية المعرفة؛ وبهذا ينتصر كواين لدعواه القاضية بعدم فصل العلم الطبيعي عن المتافزيقا النظرية. فكواين يعترف بالعالم الخارجي، تمامًا كما نجد هذا الاعتراف لدى برتراند راس[1]، غير أنه يعاضد دعواه بامتناع التحدد الذي يكشف عنه العلم الطبيعي ذاته.

تخالف إبستيمولوجيا كواين التقليد الفلسفي العقلاني خصوصًا الديكارتي كما تخالف التقليد التجريبي الممتد من ج . لوك John Locke إلى برترنالد رسل، والوضعيين التجريبيين إلى درجة يمكن أن نقول معها بأن كواين يرد ابستيمولوجيته إلى شعبة من شعب السيكولوجيا التجريبية Empirical psychology واللسانيات.

ففي رد فعلنا عن مثير حسّي، يكون هناك عنصران يمكن أن نميز بينهما نظريا يرجع الأول إلى المثير، والثاني إلى ما يصاحب هذا المثير من compresents مما ينشأ من العادة. فالأساس لن يكون خالصًا والحواس الأخرى ستتأثر بالمثير، بالنظر إلى قانون العادة، فعندما نشاهد قطة نتوقع أن تموء (...) فإذا ما نبحت فستكون دهشتنا بالغة. ولهذا الأمر علاقة باعتقادنا بأننا نشاهد موضوعات وليس ما لدينا مجرد إحساسات بصرية[2].

1 Russell, Bertrand, *An Inquiry Into Meaning and Truth*, Alten and unwin, 1980.

2 مشروح، إبراهيم، **إشكالية الصدق والمعنى عند برتراند رسل**، (من خلال كتابه بحث في المعنى والصدق) كلية الآداب- الرباط، مرقونة ، 1983\1984 ص 25، وما بعدها.

وباعتبار أن موضوعات المعرفة ليست أفكارًا فطرية أو معطيات حسّية مباشرة، فإن حتى الوقائع الحسية التي قال بها راسل تسند على نحو ما دعوى نسبية الانطولوجيا التي تقول بالنسبية بحسب عدم تحدد العلاقة القائمة بين الموضوعات الطبيعية وجهازنا العصبي[1].

فقد جاء في فصل عقده ر.جون نولسن (1992)R.J.Nelson تحت عنوان" **الفلسفة جزء لا يتجزأ من العلم**" أن كواين لا يدعى وجود فلسفة خارج العلم سواء أكانت سابقة أم متأخرة بل إن الفلسفة لا تخرج عن نطاق العلم الطبيعي.

أليس في هذا الموقف الفلسفي الكوايني مجاوزة للتجريبية المنطقية دون الخروج عن ثابت من ثوابتها ألا وهو نزعتها العلمية ومعاداتها للفلسفة النظرية أو الميتافيزيقا التي صارت عند كواين تتمثل في الدعوى المردودة القائلة بوجود فلسفة أولى سابقة عن العلم.

5. الصورة المفهومية والتجريبية المعتدلة:

المقصود **بالصورة المفهومية** conceptual scheme أو **الإطار المفهومي مجموعة الطرائق التي تنظم بواسطتها التجربة.** فهي عبارة عن أنساق من المقولات التي تحبك الوقائع الحسية وتنظمها في **صور ذهنية** لتكون بذلك بمثابة أطر تضم النظريات وأوجه النظر التي تقارب الواقع.

1 Nelson,R.J, *Naming and Refernce* , Routledge, Edited by Ted Houderich, 1992, p.123.

يرادف دونالد ديفيدسن Donald Davidson بين اللغة والنظرية، فهو يعتبر أن الصورة المفهومية عبارة **عن طرق تنظَّم بواسطتها التجربة فنعطيها صورة تمثل الوقائع الحسية**. ونظرًا لكون الصورة المفهومية عبارة عن **إطار أو نظرية أو لغة، فإنه لا وجود- في نهاية المطاف- لطريقة محددة لترجمة صورة مفهومية إلى صورة مفهومية أخرى؛ وذلك راجع إلى امتناع تحدد الصدق والمعنى والاعتقاد** Truth meaning and belief:

" إن الواقع نفسه تابع للصورة المفهومية [أو الإطار المفهومي]؛ لأن ما قد يعتبر واقعيًا في نسق ما، قد لا يعتبر كذلك في نسق آخر"[1].

ولهذا، نأخذ، مع كواين، بوجود **كثرة في الصور أو الأطر المفهومية أو في الصور أو الأطر النظرية**. غير أن نزعة كواين الفيزيائية تجعل كل **النظريات نسبية** أي أن صدقها راجع **لشمولية المعرفة الفيزيائية**. وتبقى مسألة ما إذا كانت هناك **وحدة للصورة المفهومية** أي وجود صورة مفهومية واحدة مسألة معلقة.

لقد تبنى دعاة الأنساق المنافسة **موقف مذهب الكثرة** الذي تناولناه في الجزء الثاني من هذا العمل[2] وهو موقف يدّعي النسبية المطلقة (خصوصًا منه مذهب **الكثرة الشمولية**). ذلك أن نظرية الدلالة قد عرفت اهتمامًا متزايدًا مع الأزمات التي شهدتها العلوم. وقد بين ماريو بونج Mario Bunge في مقالة افتتاحية للندوة الدولية في موضوع **الدلاليات في العلوم** ألقاها تحت عنوان: "**فضيحة الفلسفة**" جاء فيه:

---

1 Davidson, *Inquiries into truth and Interpretation* **,** op;cit, p.183.

2 مشروح، إبراهيم، **كواين: ما بعد الفلسفة التحليلية، الدلاليات وفلسفة المنطق**.

"إن المفاهيم الأساسية في علم الدلالة هي، بالطبع مفاهيم المعنى ومفاهيم الصدق. ولسوء الحظ لسنا نتوفر، على نظرية للمعنى أو للصدق تكون قادرة على معالجة **مفهوم المعنى الواقعي أو مضمون القضية أو النظرية سواء في العلم الطبيعي أو في العلم الاجتماعي.** ويسري ذلك على مفهوم الحقيقة الموضوعية/ الواقعية. فالنظرية الوحيدة في علم الدلالة هي **نظرية النماذج**. وهي عاجزة أيضًا عن ضبط مفاهيم الإحالة على الوقائع أو المضامين الواقعية التجريبية ..." [1].

لقد قادت هذه الحقيقة إلى **دعوى نسبية الصورة المفهومية.** وهذا الأمر يدل على أن المشكلات الدلالية هي التي حدت بكواين إلى مراجعة التصور الوضعي المنطقي من خلال نقد معتقدات النزعة التجريبية التي عبر كارناب عن أكمل صورها. وقد اعتبر ديفيدسن، عن حقّ، أن **دعوى نسبية الصورة المفهومية هي روح وجوهر التجريبية المعتدلة** عند أستاذه كواين.

وأما ريتشارد رورتي R. Rorty فيذهب إلى حدّ القول بأن **التجريبية المعتدلة** هي ما يمكن أن يعبر عن حداثة النزعة التجريبية **(أو ما بعد النزعة التحليلية)**. فقد ألحت الفلسفة التحليلية على مسألة المعنى، غير أنه بعد أن أيقن علماء وفلاسفة القرن الماضي بالحقائق التي توصل إليها العلم، وبعد أن وثقوا بأنها تطابق الواقع حتى زعموا أنها حتمية، صار الأمر يقضي بخلاف ذلك. فمع الأزمات التي شهدتها الرياضيات (أزمة الأسس Crisis

1 Bunge, Mario, "The scandal of philosophy";.Discours d'ouverture du Colloque de Rixensart du 30 Aout au 3 Séptembre sous le théme de :*la Sémantique dans les Sciences*, 1974, pp,11.12.

of foundations) والفيزياء (انهيار مفهوم الحتمية)....[1] لم يعد ثمة مجال للقول بالمطابقة التامة بين النظرية العلمية والواقع الحيّ.

فحتى في مجال الرياضيات الخالصة، تبدّى من خلال مبرهنة غودل Gödel بخصوص امتناع التمام incompletness نوعٌ من النسبية، ومفاد ذلك أننا نجد في كلِّ نسق رياضي صوري متسق ومحكم بما يكفي لإجراء العمليات الرياضية الدقيقة، عباراتٍ صحيحةً لا يمكن البرهنة عليها أو نفيها داخل هذا النسق نفسه (المبرهنة الأولى)، ولا يمكن لهذا النسق أن يبرهن على اتساقه. وهكذا، تكشف مبرهنة امتناع التمام عن وجود قيود على الأنساء الرياضية تشي بوجود هوة بين الحقيقة الرياضية والبرهنة الصورية.

إن النظريات العلمية مجرد **صور مفهومية أو أطرٍ لسانية** language frameworks تفرغ فيها مقاربات متنوعة للوقائع العلمية محددة داخل **شبكة من العلائق الرياضية المجردة. فالوقائع المادية ليست هي الوقائع التي يتم صوغها داخل النظرية**. ولهذا السبب، اقتنع العلماء بضرورة التخلي عن التصور العلمي للكون الموروث عن القرن CIC.

لقد كان نيلز بوهر N. Bohr ينظر في موضوع فيزيائي واحد، وكان منشغلًا بكيفية تحديد الشروط التي تنطبق فيها مفاهيم العلم الطبيعي، وتساءل عما إذا كانت الأوصاف أو الرسوم التقليدية ما تزال صالحة للتعبير عن المعنى الجديد؛ ولهذا صاغ **مبدأ وجود الصفات أو الخصائص** حيث يؤثر قياس خاصية ما في قياس الأخرى وفق **تصور تكاملي**. ولعل هذا يتفق- إلى حدّ ما- مع شمولية التحقق، ويزيد من تقويته دعوى امتناع تمحيص الإحالة.

1 Khun,Thomas, *The Structure of Scientific Revolutions*, University of Chicago press Chicago, 1962.

لقد بيّن كواين من خلال عدم تحدّد الترجمة أن الإحالة أمرٌ نسبي، وقد كشف ديفيدسن من جهته عن هذه الدعوى حيث قال: "يظهر أن بعض ما يفهم من **النسبية المفهومية** Conceptual relativism قد أوحى لكواين بأن يدعي أن الإحالة والانطولوجيا والصدق يجب أن تغدو **تابعة للخلفية النظرية أو اللغة**"[1].

ولهذا كان طوماس كيون Thomas Khun محقًا حين اعتبر أن العلماء يشتغلون بطرائق متباينة داخل نماذج أو في عوالم مختلفة. فلا أساس من الصحة لدعوى **ثبات المعنى** .Meaning invariance فاللغة أو المعنى - إن نحن أخذنا **بالترادف** بينهما في إطار النسبية المفهومية - عبارة عن **كل متّسقٍ لا وجود لإمكانية الفصل داخله بين عبارات تحليلية وأخرى تركيبية؛ فالنظرية جسم واحد يقابل الواقع. ومن هنا فإن معنى كلمة أو عبارة داخل نظرية ما لا يتحدد خارج النظرية ولا يصدق خارجها** يقول بول فاير باند Paul Feyerbend بهذا الصدد:

" تكمن حجتي المتوجهة على دعوى ثبات المعنى في كونها حجة بسيطة وواضحة بما فيه الكفاية؛ فهي تنطلق مما يفيد أن المبادئ المتضمنة في تحديد معاني النظريات أو وجهات النظر القديمة، تكون غير متسقة مع المبادئ الجديدة"[2].

1 Davidson, *Inquiries into*....op .cit.p.233.

2 Feyerabend, Paul, "Explanation, Reduction and Empiricism", In *Scientific Explantation, Space and Time*; Minnesota Sudies in the philosophy of science, University of minnesotta press ,Minneapolis.

لقد تخلخلت قناعات العلماء أمام هذه التغيرات، وصاروا **أقل تشبثًا بمبدأ الموضوعية**. كما بينت نتائج البحوث في فلسفة العلم، مع كيون، مثلًا، أن الانتقال من العلم العادي إلى إحداث ثورة تنتهي إلى علم جديد يتم من خلال مجاوزة **نموذج إرشادي** paradigme علمي عادي إلى نموذج إرشادي جديد. وهذه النتيجة، تكشف لنا **أن النماذج الإرشادية تكون بمثابة أطر مفهومية أو عقلية.**

لقد اقترب العلماء مما يمكن أن ننعته **بمبدأ الحياد المعرفي** cognitive neutrality الذي يفيد أن **النسبية هي الطابع العام الذي ينبغي أن نتبناه بعد أن نهجر مفهوم الموضوعية الذي ظل يشكل أساس التصورات العلمية في القرن الماضي.**

ها هي ذي إذًا، التقريرات التي ظلت خفية، وغالبًا ما تم التعبير عنها بطرق خجولة تطفو على السطح نحو ما قاله هايزنبرغ Heizenberg بخصوص **الجزئيات الأولية** حيث اعتبرها مجرد صيغ رياضية أكثر منها وقائع مادية؛ ولعل هذا يذكرنا بقولة هيرتز Hertz الشهيرة: **إن نظرية ماكسويل** Maxwell **هي معادلات ماكسويل**[1]. علمًا أن معادلات ماكسويل عبارة عن قوانين أساسية للظواهر الكهرومغناطيسية.

يمكن أن نستنتج أن دلالة النظرية قد انزاحت عن كونها تمثل العلاقات الموضوعية داخل مجالها لكي تمثلها في علاقات صورية تقوم، بالدرجة الأولى،

1 Agazzi, Evamdo, "Les critéres sémantiques pour la constitution de l'objet scientifique", In *La sémantique dans les sciences*, Colloque de Rixensart, 1974, pp. 14-15.

على اتساق النظرية، وبالتالي **على القيم الصدقية التي تسندها النظرية لقضاياها وتلتزم بها انطولوجيا.**

تفيد دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية أننا نظفر من بين نتائجها على **رفض البرنامج الذي رسمته الوضعية المنطقية المتمثلة في كارناب الذي زعم أنه بالإمكان وضع إطار لساني للنظرية يكون قادرًا على تنسيقها، ومقتدرًا على التمييز بين المحتوى التجريبي والصورة المنطقية المحكومة بقواعد دلالية تُحكِم قضاياها وتصوغها صياغة محكمة لا يتسلل إليها الالتباس.**

لقد اعتبركواين أن برنامج كارناب قد فشل بعد ما أثبتته دعوى الشمولية التي تقضي بأن عبارة أو قضية ما لا تواجه الواقع معزولة عن إطارها النظري، ولا تقابل الواقعة المادية الواحد بالواحد لأن:" **القضايا المتعلقة بالعالم الخارجي تواجه محكمة التجربة** tribunal of experience **كجسم واحد**"[1].

لقد أدرك كواين ما وقع فيه كارناب من حرج نظري حين سعى إلى التوفيق بين شمولية ديوهيم Duhem وبين التفريق الذي أجراه بين الأسئلة الداخلية والأسئلة الخارجية: "لقد اعترف كارناب بأنه **لا يستطيع أن يحافظ على معيار مزدوج للأسئلة الانطولوجية والفرضيات العلمية فقط بالأخذ بالتفريق المطلق بين التحليل والتركيب.** ولست في حاجة إلى القول، مرة أخرى، بأنني أرفض هذا التفريق"[2].

1 Quine ;(1953), "Two dogmas of Empiricism" in *From a logical point of view* , op, cit ,p 41.

2 Quine, *From a Logical Point of View*, pp. 45-46.

يظهر أن النظرية العلمية بلغتها وأنطولوجيتها (=بإيديولوجيتها وأنطولوجيتها) تدخل في إطار **الصورة المفهومية**، فلا وجود لإمكانية فصل المحتوى التجريبي عن الخلفية النظرية لأنطولوجيته، **فلا ذاتية بدون هوية.** ومن هنا انتهت فلسفة العلم الكواينية إلى **نزعة واقعية** تأخذ بالتجربة لكنها تقضي **بنسبية النظرية** دون التفريط في **النزعة الشمولية** التي توافق نزعة كواين الفيزيائية:

"نظرًا لكوني تجريبي النزعة، فإنني **سأظل آخذ بالصورة المفهومية** باعتبارها إطارًا يصلح - بكل تأكيد - **للتنبؤ بالتجربة المستقبلية في ضوء التجربة الماضية**، وستكون الموضوعات الفيزيائية محمولة كوساطات مناسبة"[1] .

وهكذا تتجلى النزعة التجريبية المعتدلة عند كواين في إضفاء **طابع النسبة على الإطار أو الصورة المفهومية دون التفريط في النزعة الفيزيائية التي تقضي بأن العلم الشامل هو الفيزياء.**

1 Ibid, p. 44.

الفصل الثاني

فلسفة العلم: طبيعانية المعرفة وشمولية الحقيقة

الفصـل الثانـي

الالتزام الأنطولوجي والنسبية الأنطولوجية

يتناول هذا الفصل علاقة الدلالة بالأنطولوجيا، ويعرض دعوى كواين الشهيرة حول **النسبية الأنطولوجية** من خلال الدرس المنطقي المعاصر الذي يتولى نقل القضايا المنطقية من الاشتغال المنطقي في إطار المنطق المحمولي ونظرية التسوير إلى المعالجة الفلسفية في مجال فلسفة المنطق.

وهكذا، سنتولى عرض دعوى النسبية الأنطولوجية بين الدلالة وفلسفة المنطق، ونعرج على معيار الالتزام الأنطولوجي، لنخلص إلى بيان القيمة الفلسفية لدعوى **النسبية الأنطولوجية**؛ وقد عنّ لنا أن الفلسفة التحليلية تلتقي، في غير ما نقط مشتركة مع الفلسفة القارية، ولسنا نرى أن هذا السياق مناسب للخوض فيها[1].

لقد كانت مشكلة الوجود، ولا زالت، تثير اهتمام الفلاسفة من أفلاطون وأرسطو، إلى الفلسفة القروسطية والحديثة ثم إلى الفلسفة المعاصرة؛ ذلك

1 سوف نتولى، في عمل لاحق، النظر في ما أطلقنا عليه، في غير هذا السياق، " الربط القاري بين الفلسفة التحليلية والفلسفة القارية"، ويتعلق الأمر بمقارنة المقاربتين الفلسفيتين لمسألة الوجود بين الفلسفة القارية والفلسفة التحليلية في قضايا يتقاطع فيها كواين نسبيا مع هايدغر Heidegger؛ راجع مداخلتنا: "**التمنطق والتفلسف: أصول تنازع الفلسفة التحليلية والفلسفة القارية**" ألقيت في ندوة نظمتها مؤسسة مؤمنون بلا حدود بالرباط بتاريخ 11 و 12 فبراير 2017، في موضوع: **المنطق واستعمالاته**.

أن سؤال الوجود، والمسألة الميتافيزيقية من شواغل المناطقة الذين نظروا فيما وراء الأنطولوجيا meta-ontology[1] فسلطوا عليها- بخلاف التقليد الفلسفي الفينومينولوج- العدة المنطقية من منطق المحمولات والأسوار الوجودية التي تقيد المتغيرات والتي تبلورت معها رؤية كواين للذوات المجردة حيث جاء بدعوى الالتزام الأنطولوجي، ثم بدعوى النسبية الأنطولوجية.

ينخرط كواين في الأنطولوجيا التي يحصرها في البحث الذي يسعى للإجابة على السؤال الذي أدمن عليه جل الفلاسفة: ما الوجود؟ غير أنه يبقى وفيًا لتصور كل من كانط Kant وفريغه Frege وراسل Russel، وإلى درجة من الوفاء لأرسطو؛ وذلك لأنه لم يعالج السؤال المجرد: ما الوجود؟ بل بقي عند حدود الموجود: ما الموجود؟

وبخلاف أنطولوجية كواين، يعتبر هايدغر وأشياعه سؤال الوجود أهم وأعمق سؤال فلسفي للاعتبارات التالية:

- أنه سؤال كلي بمعنى أنه جنس الأجناس الذي لا يعلوه شيء؛ وههنا يعتبر هايدغر أن هيغل هو الفيلسوف الوحيد الذي انتبه إلى الوضع السامي للوجود؛
- أنه يمتنع عن التعريف لأن المعرفات لا تطاله، وهو كلي لا يدخل تحت أي محدد، وأما الموجود من شجر وحجر وأي شيء فيمكن تحديده وتعريفه بالجنس القريب والفصل الذي يميز طبيعة عن طبيعة؛
- أنه واضح بذاته بحيث إنه يدخل في جميع أحكامنا، ويتخلل تعبيراتنا

1 Inwagen, *Existence: Essays in Ontology*, Cambridge University Press 2014

عن أي موجود كائنًا ما كان؛ فهو الرابطة بين الموضوع والمحمول...[1]

ومع أن سؤال الوجود قد احتل في الفلسفة القارية مكانة مركزية، فإن دعوى كواين الأنطولوجية ستشكل للأنطولوجيين في الفلسفة التحليلية عمومًا قاعدة موجِّهة خصوصًا معيار الالتزام الأنطولوجي creterion of ontological commitement الذي سيسعف في الخوض في ميتا-الأنطولوجيا ومساعيها للبحث عن جواب يتعلق بالموجود.

إنه لمن المحتمل أن يواجه المهتمون بسؤال الوجود عند هايدغر أن يكرُّوا عليه بالنقد خصوصًا التفريق الذي أقامه بين الموجود ontisch والوجود ontologisch حيث اعتبر أن سؤال الموجود يخص العلم، وأما سؤال الوجود فيخص الفلاسفة. وقد يستمد النقاد من كواين معياره الأنطولوجي ليبطلوا ما زعمه هايدغر.

تـوطئـة

بما أن كواين لا يؤمن بوجود فلسفة أولى، فإن الأنطولوجيا عنده لن تتعلق بسؤال ميتافيزيقي كما هو الحال مع هايدغر الذي فرق بين الموجود والوجود، وتخلى عن الميتافيزيقا الغربية منذ سؤال أرسطو عن الموجود؛ فقد انطلق هايدغر من ملحظٍ فلسفي يقرر مسألة 'نسيان الوجود' Seinsvegessenheit حيث فرق بين مجال العلم الذي ينظر في **الموجود**،

1 Inwagen, "Being, Existence, and Ontological commitemnt". In *Metametaphysics: New essays on the Foundations of Ontology*, Clarendon Press- Oxford 2009. p. 473.

ومجال السؤال الفلسفي- الميتافيزيقي عن **الوجود**؛ ومن هنا ادعى أن الفلسفة الغربية تجاهلت أو 'نسيت'- نسيانًا غير سيكولوجي- الفرق بين الموجود ontisch الذي يتعلق بالأشياء والموضوعات الخارجية، وبين الوجود ontologisch.

ومعلوم أن هايدغر لا يأخذ بالعدة المنطقية لمعالجة سؤال الوجود، فهو يرى ومعلوم كذلك أن كثيرًا من أعماله كان موضوعها يتناول مساءلة ماهية المنطق والحفر في أسسه وخلفياته الميتافيزيقية[1]. وفي تعقب موقفه من المنطق ما قد يشطّ عما نحن بصدده، إذ نعلم علم اليقين أن هايدغر قد خبر المنطق وكانت بداياته الفلسفية عبارة عن فلسفة في المنطق خصوصًا تعاطيه مع الدلالة والمقولات التي كانت هي رسالته للتأهيل الجامعي حول المقولات والمعنى عند دون سكوت Don Scott، ثم كتابة حول لايبنتز والأسس الميتافيزيقية للمنطق، فضلًا عن اهتمامه البالغ بالمنطق والأنطولوجيا لدى كل من فرانز برنطانو Franz Brentano وماينونغ Meinung الذي استلهم منه كثيرًا من طروحاته الفلسفية[2].

لقد امتد الترابط بين التفلسف والتمنطق إلى حين صارت فيه اللغة موضوعًا للتفكير بعد أن كانت وسيلته 'البريئة'، حين برزت الوضعية المنطقية والفلسفة التحليلية كرؤية جديدة لإعمال التحليل المنطقي للغة واتخاذه أداة لإقصاء الميتافيزيقا؛ فهذه اللحظة **تجاوزت ازدواج المنطق بالفلسفة**

1 Heidegger, *The Metaphysical foundations of Logic*, Trnans. by Michel Heim, Indiana University Press. Copyright 1984, pp. 13-15.

2 لقد أعددنا لهذا الموضوع دراسة مستفيضة تحت عنوان: **هايدغر والمنطق**، وهي مشروع كتاب نأمل أن نصدره قريبا.

عند هيغل إذ جعلت المنطق حاكمًا على الفلسفة، فقد اتخذت هذه الرؤية المنطق كأداة راهن عليها الفلاسفة المناطقة للقضاء المبرم على الميتافيزيقا، وبالتالي على الفلسفة.

لا بد من الإشارة هنا إلى أن هايدغر ظل يعتبر أن المنطق قد قام على أسس ميتافيزيقية تنطلق من الموجود وليس من الوجود؛ لذلك، فهو يرى أن "المنطق مفصول عن أساسه الأنطولوجي الأصلي، لم يخْطُ ولو خطوة واحدة منذ أرسطو، وذلك رغم جهود كل من كانت وهيغل"[1].

أما كواين فلبث في السؤال التقليدي: ما الموجود؟، وظل يتدجج بالمنطق في صورته العاصرة التي ازدوج فيها أيما ازدواج بالرياضيات، كما أنه استند إلى مبحث الدلاليات حيث اعتبر أنه إذا كان المعنى هو ما يحضر في أذهاننا فنتمثله تصورًا في الأذهان، وكانت الإحالة هي المُشار إليه الذي يتعين لنا فنلحظه مشارًا إليه في الأعيان، فإننا لا نبرح الأنطولوجية التي تعطانا من خلال الدلالة؛ ولهذا تطفو على السطح إشكالات من قبيل صلة اللغة بالوجود، وعلاقة المعنى والإحالة بما أطلق عليه كواين "الالتزام الأنطولوجي".

سوف نتولى، كما قلنا، في هذا الفصل النظر في علاقة الأنطولوجيا بالدلالة من خلال ما استشكله ويلار فان أورمان كواين في معضلة الإحالة على الذوات المجردة التي صاغ فيها فكرته المتعلقة **بالالتزام الأنطولوجي**، وبمعضلة الدلالة والإحالة التي تمكن من صوغها في أكثر من دعوى كدعوى امتناع تحدد الترجمة، وامتناع تحديد النظرية العلمية، وطبيعانية المعرفة، وكدعوى شمولانية الحقيقة Holism.

1 Heidegger, *Être et Temps*, trad. Fran. François Vezin, édition Gallimard, 1986, p. 222.

وسوف نتعرض لهذه الدعاوى ضمن ما تقوم عليه أطروحة كواين القاضية **بالنسبية الأنطولوجية** للكشف عن **المسوّغات الدلالية** القائمة على الخلفية المنطقية مؤمنين بأن فكركواين الذي ينتمي إلى التقليد الفلسفي التحليلي يلتقي، ومن عجبٍ، مع كثير من طروحات هايدغرHeidegger حول اللغة والوجود (ولنا عودة إلى هذه المقارنة الفلسفية في غير هذا السياق).

1. الدلالـة والأنطولوجيـا:

حين نمعن النظر في علاقة الدلالة بالأنطولوجيا، نجد أن مقولاتها هي التي تحمل الجهات التي يعطانا من خلالها الموجود، وقد نتكلم أحيانًا عن المعدوم مما يضعنا في وضع مفارق؛ وذلك من خلال ما ينشأ من تكلمنا عن المعدوم من قبيل 'طائر الرخ'، أو 'الغول' أو 'العنقاء'، فهل يمكن أن نتكلم عن شيء ما لا وجود له؟ فلو أننا فعلنا ذلك، فسنقع في تناقض، إذ كيف نسند له وجودًا لا يملكه أصلًا؟ وهل ينبغي أن ننصت لكلام فتغنشتين Wittgenstein الذي اعتبر أنه حيثما لا يمكننا الكلام فثمَّ يجب الصمت .[1]! فلسنا نقوم سوى بأن "نصنع لأنفسنا صورًا عن الواقع" بصوغ الوقائع في عبارات صورية رمزية؛ فالصورة مجرد نموذج يختزل الواقعة لتغدو الصورة تمثيلًا رمزيًا لهذا الواقع وتمثُّلًا له من قبلنا[2]. فكيف السبيل إلى التكلُّم عن الموجود الخارجي؟

1 Wittgenstein, Ludwig, *Tractatus Logico-Philosophicus*, trad. Gilles-Gaston Granger, Gallimard, 1993, p. 31.

2 Ibidem,2.12, 2.13, p. 38.

يرى كواين أن نسق العالم إنما يكمن في نظريتنا عن العالم، وأن تكلُّمنا عن الموضوعات الخارجية يبقى تابعا للتحديدات التي توفرها النظرية في شموليتها الدلالية؛ ولهذا اعتنى كواين بالمسألة الأنطولوجية؛ وهذا أيضًا ما دفعه إلى نثر الكثير من الشكوك حول الإبيستيمولوجيا خصوصًا في دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية، وبالتحديد في قوله بامتناع التمحيص الجزئي للقضايا التي تشملها نظرية علمية ما، وفي دعوى امتناع تحدُّد الترجمة.

إن ما يميز اهتمامات الفلاسفة الأنطولوجيات علوم من قبيل علم النبات، أو علم الحيوان، أو الفيزياء والرياضيات فقط هو اتساع أوعية التساؤلات التي تصدر عنهم، ونطاق المقاربات التي يسلكونها؛ غير أن الأمر إنما يؤول في الأخير، إلى العلماء الممارسين الذين يتصلون بموضوعاتهم، ويسعون إلى فهمها وتفسيرها والتنبؤ بها، وهذا ليس في مكنة الفلاسفة.

حين خاض الفلاسفة الماديون في مفهوم المادة، لم يجدوا بُدًّا من أن يقروا بتبعيتهم للاشتغال العلمي، أو المكوث عند عتبة المفهوم الفلسفي الذي لا يملك مدلوله سوى أن يجد ماصدقه لدى العلماء مهما كان مجردًا؛ ومن هنا فالعلم هو الذي يجيب على السؤال: '**ما الموجود**؟'[1].

لقد اشتغل بعض المناطقة المرموقين بالأنطولوجيا من أمثال برنطانو Brentano الذي اهتم بالمقولات وعالج معضلة عدم الوجود المفهومي أو التصوري وتتلخص أطروحته في كونها ترتبط بالعلاقة المفهومية القائمة بين الفعل التصوري وموضوعه المحايث، وقد اشتهر بمقالته التي أثارت كثيرًا من

1 Quine*, Word and Object*, Cambridge MIT Press, 1960, p. 275.

النقاش؛ ويتعلق الأمر بـ" السيكولوجيا من وجهة نظر تجريبية"[1].

ومن المعلوم أن سؤال الوجود عند برنطانو قد حصر الأنطولوجيا في طبيعة الوجود المُعطى للأذهان، فتولى ملاحقة الموجود في الظواهر الذهنية في نطاق العلاقة بين العقل والواقع. وقد تأثر بأرسطو الذي فرق بين الموجودات الطبيعية، والموجودات المنطقية والموجودات الميتافيزيقية حيث ركز على إدراك هذه الكائنات كما تحصل في الأذهان بوصفها مفاهيم تعطى للفهم، ومن هنا نعت مقاربته بالقصدية intentioality [وهي تدل على القصد أي المعنى] حيث يتصل الذهن بموضوعه.

وإذا كان كل من غوتلب فريغهFtege وبرنطانو Brentano قد أخذا بوجود الذوات من قبيل الفينيق والفرس الطائر وطائر الرخّ والعنقاء بوصفها كائنات ذهنية تتمتع بالوجود لا في الأعيان بل في اللسان والأذهان، وفي الكتابة حين تُخطُّ أسماؤها بالبنان؛ فإن ماينونغ Meinung قد اعتبر أن كائنات من هذا القبيل تبقى موجودة لكنها لا توجد بل إنها توجد كإمكان.

يبدو أن فتغنشتين قد حسم الأمر حين ردّ كل الممكنات إلى مجال المنطق، ففي مجال المنطق كل شيء ممكن؛ لأن المنطق يتعاطى مع كل احتمال، وكل الاحتمالات تشكل حقائقه[2]. ومع ذلك، فلن يتوان كواين عن التعقيب على

1 Brentano, Franz, *Psychologie vom empirischen Standpunkt, Leibzig*, 1874. Psychologie de point de vue empirique, traduction de M. de Gandillac, nouvelle édition revue par J-F. Courtine? Paris, Vrin, 2008.

2 Wittgenstein, *Tractatus logico-philosophicus*, with an Introsuctio by Bertrand Russell, translator C. K. Ogden, see: 20121:
https://www.gutenberg.org/files/5740/5740-pdf.pdf

تقبل المنطق لكل احتمال أو إمكان، فقد رفض فكرة وجود كائنات معدومة أصلًا، أو هي عبارة عن ذوات مجردة؛ ولك بخلاف ماينونغ Meinuung حيث انطلق كواين من هذا التّحذير:

- علينا أن نحصر استعمالنا لـ "الممكن" فنقصره على القضايا بدل أن نربطه بالذوات؛

ففي ملخص مفيد لبيتر شيوشتدت هيوغس Peter Sjostedt Hughes لمقالة كواين: في سؤال: **ما الموجود**؟[1] التي واجه بها كواين دعاة وجود الذوات الممكنة من قبيل الحصان الطائر أو الغول أو العنقاء...؛ فقد نقل الأمر من الحديث عن هذه الموجودات إلى تحليل القضايا التي ترد فيها.

كان كواين يرى أن التكلُّم عن الحصان الطائر المقدس Pegasus الذي حكت عنه الأساطير اليونانية يطرح مفارقة مفادها أننا نتكلم عن ذات مع أنها غير موجودة، فبدل أن نبحث وجود الحصان الخرافي، نستعمل العبارة: " لا وجود لحصان طائر"، فنؤكد عدم وجود هذا الكائن ونثبت أن العبارة: "هناك طائر بجناحين" عبارة كاذبة، ونخرج بالتالي من المفارقة.

لقد وسم كواين لغز اللاوجود بلحية أفلاطون Plato's Beard ، ويحيل هذا اللغز على كوننا لا نستطيع أن نتكلم عن شيء لا وجود له من قبيل بيغاسوس الذي، وإن كان يحمل معنى: 'الحصان المُجنّح'، فإنه لا يحيل على

1 Peter Sjostedt Hughes, "Quine: On what there is" Summary, My summary for my undergrduates on W.VO Quine. Seminal paper of 1948, *On what there is*: https://www.philosopher.eu/texts/quine-on-what-there-is-summary/

أي شيء. وهنا تقع المفارقة: كيف نتكلم عن شيء لا وجود له؟ أو كيف نتكلم عن معدوم؟

لتلافي عدم اتساق العبارة: "لا يوجد حصان مجنح"، عمد ماينونغ إلى التمييز بين الموجود الموضوعي existent، والموجود المعلق subsistent، فعندما نقول إن الحصان المجنح لا وجود له، فإننا نميز بين الموضوعات الموجودة بالفعل والموضوعات المعلقة؛ فإذا كان بيغاسوس يسمي موجودًا معلقًا هو الحصان الطائر الذي لا يوجد أصلًا، فإننا نستطيع أن نصوغ عبارة سليمة مفادها أن بيغاسوس لا وجود له[1].

ولو استحضرنا شفرة أوكام Occam's razor أو مبدأ الحرص parsimoney لقلنا بعدم تكثير الذوات التي لا اعتبار لها في الوجود، وأن البساطة تقتضي الاقتصاد. لكن كواين وإن كان يحبذ البساطة، فقد مضى في تفكيك لغز بيغاسوس، أو مفارقة التكلُّم عن المعدوم.

فلكي يضع كواين حدًّا للمضي في التزام أنطولوجي بوجود بيغاسوس أو الحصان المجنَّح الذي لا وجود له، عمد إلى بيان ما يلي: فبيغاسوس أو الحصان المجنح لا وجود له للاعتبارات التالية:

أ) إما أن نعتبره اسمًا؛

ب) أو نعتبر أن 'الحصان المجنح/ بيغاسوس لا وجود له' عبارة فارغة من المعنى،

1 Meinung, A., *Uber Annahmen*, Leibzig, 1901, p. 74. Cité dans: J. Peterson, "Quine and Plato's Beard Revisited": https://www.filosofiskanotiser.com/Peterson15_3_1.pdf

ج) أو أن نعتبر أن خلوّ 'الحصان المجنح لا يوجد' من المعنى يقتضي خلو 'الحصان المجنح' من المعنى، ٤) أو أن المعنى والإحالة يتماثلان في المسمّى، وبالتالي فبقولنا بالخلوّ من المعنى نكون قد انتهينا إلى أن بيغاسوس لا وجود له أصلًا.

تكمن المفارقة التي أثرها كواين تحت مسمى لحية أفلاطون Plato' Beard أننا نقع في التناقض حين نتكلم عن شيء بأنه غير موجود بكونه موجودًا حين نتكلم عنه أو نحيل عليه، حيث نقول بوجود أشياء لا وجود لها، وهذا منتهى الخلف، فكيف يستقيم أن نقول: هناك أشياء لا وجود لها!!

يذكر أن كوتارنسكي أراد أن يخرج من هذا المأزق الدلالي فقال بأنه لا شيء يتمتع بالوجود إلا الأشياء المادية الملموسة؛ ولذلك صارت أنطولوجيته تنعت بالنزعة الشيئية reism، من اللفظ اللاتيني res أي الشيء كما وصفت أنطولوجيته بالأنطولوجية ذات النزعة الحسِّية أو الملموسية concretism. وهكذا انتهى كوتاربنسكي إلى نزعة واقعية جذرية عبر عنها صراحة في مؤتمر دولي حول الفلسفة[1].

إن الشيء الذي ينبغي أن نؤكد عليه في هذا السياق هو عودة الجدل الفلسفي بخصوص الأنطولوجيا، وهو سياق يشكل فيه كل من هايدغر وكواين لحظتين فارقتين وإن اختلفا أيما اختلاف في معالجة المسائل الأنطولوجية.

1 Kotarbinski, Tadeusz, "Le réalisme radical". In *Proceedings of th sevnth International Congress of Philosophy*, held at Oxford, England , September 1930, edited by Ryle, Gilbert, 488-500. Oxford Univesity Press 1931.

وتجدر الإشارة إلى أن المتكلمين المسلمين، وخصوصًا مذهب المعتزلة، كانوا قد انخرطوا في قضايا أنطولوجية من قبيل ما عرف بمسألة **شيئية المعدوم** حيث فرق أهل الاعتزال بين الوجود والماهية، فتبدّى لهم أن يدعوا شيئية المعدوم كماهية مجردة من الوجود؛ وذلك في مقابل المذهب الأشعري حيث ذهب الأشاعرة إلى القول حصريًا بأن الشيء هو الموجود، وأن الماهية تزول بعدم وجود الشيء.

أما مع الفلاسفة المسلمين، فقد ذهب ابن سينا في الشفاء إلى مطابقة الشيء بالموجود سواء في الأعيان أو في الخيال والوهم، أو في العقل: " فالشيء لا يفارق لازم معنى الموجود إياه البتة، بل المعنى الموجود يلزمه دائما؛ ولأنه يكون إما موجودًا في الأعيان أو موجودًا في الوهم والعقل، فإنه إن لم يكن كذلك لم يكن شيئا"[1].

كانت هذه إشارة عابرة للإشكالات الأنطولوجية التي تعرض لها المتكلمون المعتزلة خصوصًا من بينهم أبو الحسين الخياط المعتزلي، وأبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي، والمتكلمون الأشاعرة وعلى رأسهم أبو الحسن الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين، وأبو المعالي الجويني في كتابه الإرشاد إلى قواطع الأدلة.... لسنا نروم الخوض فيها لأنها خارج السياق فقط حُق لنا أن نكتفي بالتلميح إليها عساها تكون في أفق بحث مستقل.

فلنعد أدراجنا حيث كنا، ولنشر إلى أن اللغة العربية تُسعفنا في استعمال لفظ "الدلالة" كاسم يجمع بين الدال، أي المعنى والمدلول أي الإحالة. وهو يشير إلى الموجود وإلى المعنى، ومن هنا ترتبط الدلالة بالمعرفة وبالوجود.

1 ابن سينا، الحسين بن عبد الله، **الشفاء**، تحقيق سعيد زايد، الهيئة العامة لشؤون الطبع الأميرية، 295/2.

وأما مسألة الإحالة فتتعلق في الفكر الغربي بالقضية التقليدية التي تعرض لها فلاسفة أمثال بارمنيدس وزينون وعالجها أفلاطون، إنها قضية اللاوجود. وقد أجاب "راسل" بنظرية الأنماط Théorie des types التي بلورها في مؤلفه **مبادئ الرياضيات** 1903.

تتحدد إجابة "راسل" في مضاعفة **جهات الوجود**، وعلى هذا الأساس ميز بين الوجود المتعين بالخارج existence وبقاء اعتبار الوجود أو العين الثابتة subsistence:[1]

"لا يؤدي القول ببقاء الوجود الاعتباري إلى الوجود بالخارج بالمعنى الحقيقي الفيزيقي أو الموضوعي للوجود: فـ "الأعداد وآلهة هوميروس والعلاقات والخرافات والفضاءات ذوات الأبعاد الأربعة تتمتع كلها بالوجود الاعتباري أو بكونها أعيانًا ثابتة. وذلك لأنها إذا لم تكن ذواتًا من نوع معين، فسوف يمتنع علينا أن نصوغ بصددها قضايا تتعلق بها". ومن هنا تكون العبارة "العنقاء غير موجودة" ذات معنى، وبالتالي فإما أنها كاذبة وإما أنها غير سليمة التركيب. ينبغي أن نقول إن العنقاء توجد وجودًا اعتباريًا وليس وفق **جهة الوجود الفيزيقي**".[2]

1 وضعنا بقاء اعتبار الموجود مقابلًا لـ subsistence مقابل الوجود الحقيقي existence ويحدد راسل النمط الأول بكونه لا يعني الوجود الحقيقي الفيزيقي الموضوعي وقد تأثر في هذه المرحلة ببرنطانو وبماينونغ. وقد استعرنا الأعيان الثابتة من محي الدين بن عربي الذي قال بوجود غير خارجي للأشياء التي لا تتمتع بالوجود المادي العياني، بل هي صور لحقائق الأشياء في الحضرة الإلهية. راجع: ابن عربي، محيي الدين، **الفتوحات المكية**، دار صادر، بيروت، 705/3. وما يليها.

2 Vernant, Denis, *Introduction à la philosophie de la logique*, coll. Philosophie et langage, Bruxelles, Mardaga éd, p. 220.

واضح هنا التأثير الذي مارسه ماينونغ Meinung على راسل إلى جانب تأثره برنطانو Brentano وخصوصًا أثر النزعة النفسانية عموما. غير أن قراءة راسل لفريغه Frege الذي اعتبر أن الإحالة ماصدقية، والمعنى هو **الجهة التي يعطانا بها الموضوع**، ستمكنه من الخروج، لاحقًا، من هذا المأزق الأنطولوجي المقترن بالدلالة.

يُذكر أن ماينونغ يميز بين أنماط ثلاثة من الوجود، نوردها للفائدة:

- الوجود الخارجي Ex-istenz أي الوجود الفعلي والواقعي أو الحقيقي Wirklichkeit، وهو الشيء الذي يتصف بالتحيّز في المكان والزمان؛
- الوجود الاعتباري أو الأعيان الثابتة، وهي الذوات المجردة Bestand أو الكائنات المثالية (التي توجد في عالم غير عالمنا الخارجي)، ومنها بالخصوص الكائنات الرياضية؛
- الوجود المعطى Gegebenheit الذي يقال على نحو 'يوجد' أو 'هو كائن' es gibt؛

فلنبين باستحضار هذه المعطيات نتائج دعوى راسل المتضمنة في إجابته:

1. لا يكمن معنى الاسم في إحالته؛ ومن هنا ضرورة تكثير الأنماط الأنطولوجية لمختلف المسميات حتى نتمكن من الحفاظ على المعنى المعطى للحدود التي لا تعين ذاتًا فيزيقية ملموسة.
2. يجب أن يحمل الاسم الذي نتحدث عنه معنى لأنه يقع موضوعًا في عبارة ما، فلو امتنع وجوده الحقيقي، فليس يمتنع أن نتكلم عن بقاء وجوده الاعتباري كالأعيان الثابتة.

3. ينبغي الأخذ باللسان الطبيعي الذي يقيِّد تكلُّمنا عن الأشياء ويبيح التكلم عن موضوعات ذوات بقاءِ الوجودِ الاعتباري.

من الملاحظ أن راسل قد خضع، مع ذلك، للهواجس الأنطولوجية للغة. غير أنه سيأخذ فيما بعد بـ (1) و(2) وسيهجر (3):

"سوف يقايض راسل موقفه المثالي بموقف أكثر اقترابًا من الاسمية والواقعية العادية [خصوصا عند تصريحه بأن] معنى الواقعية يعدُّ حيويًا في مجال المنطق وكل من يدعي أن "هاملت" يتوفر على نوع من الواقعية يقدم خدمة سيئة للفكر. إن المعنى الصلب للواقع ضروري لإقامة تحليل سليم للقضايا من قبيل تلك التي تتعلق "بالفرس الطائر" و"جبل الذهب" و"المربع المستدير" وبالعديد من الموضوعات[1].

يظهر أن راسل قد تخلى عن هذه الأفكار عقب صوْغه لنظرية **الرسوم المحددة** التي ستسمح له بحل المعضلات السابقة. وذلك بتشبثه بالوجود الواقعي المادي. وهكذا نجده قد ميز بين اسم العلم والرسوم المحددة والرمز الناقص متأثرًا بفتغنشتاين Wittgenstein الذي ركز على **الطبيعة الإحالية الكلية للمعنى** باستثناء الثوابت المنطقية:

1) **أسماء العلم**: وهي الحدود الإحالية، ومعانيها مرتبطة بمسمياتها فالمعنى هنا مطلق ومستقل عن السياق بل حتى وإن قمنا بعزل اسم العلم فإنه يحافظ على معناه. وذلك لأن الاسم لا يتعلق بالزمان وإن اقترن بمسماه في آن معين.

1 Vernant, *Introduction à la philosophie de la logique*, p. 220.

2) **الرمز الناقص**: وهو لا يحصل على معناه إلا تبعًا لحدود بسيطة أخرى، كما أنه لا يتوفر على مسمى، ولا يحصل على معنى إلا داخل السياق. وهذا هو شأن ألفاظ العلاقة بخلاف الاسم الذي يعتبر رمزًا بسيطًا يعين مباشرة شخصًا بحيث يمثل هذا الشخص معناه بحق في استقلال عن معاني الألفاظ الأخرى.

3) **الرسوم المحددة**: وهي العبارات الجزئية الاسمية نحو "الملك الحالي لفرنسا" و"نجمة الصباح" إلخ؛ التي يبدو أنها تلعب دور أسماء العلم فهي تعين مسمى مفردًا يمثل معناها.

ويمكن أن نلاحظ أن التمييز بين الرموز البسيطة (= أسماء العلم) والرموز الناقصة يقارب التمييز التقليدي ذي الأصل المدرسي (= السكولائي) بين الجملة الجزئية والرابط بين الجمل Catégorème et syncatégorème كما يلتقي بصورتين للتعريف بطريقتين لإعطاء المعنى لعلامة ما هما:

(أ) **التعريف بالشاهد** Définition ostensive حيث يشير إلى الموضوع المعين بالعلامة ويشكل هذا الموضوع (المشار إليه أو المحال عليه) الذي هو المعنى الإحالي للعلامة.

(ب) **التعريف بالاستعمال** Définition par usage أو **التعريف الإجرائي** opératoire أو **التعريف في السياق** Définition en contexte بحيث نعطي أمثلة تمثيلية Paradigmatique للاستعمالات التي ترد فيها العلامة ويظهر بهذه الكيفية معناها كرابط بين الجمل (أي المعنى غير الإحالي) كما هو التعريف الذي نعطيه للروابط المنطقية في جدول صدقي في استقلال تام عن كل حدس حسي.

ومع ذلك، تعترض هذه التحديدات التي تناولتها **نظرية الرسوم** [1] عدة صعوبات نذكر منها ما سيلي معتبرين، من جهتنا، أن كواين سعى إلى مجاوزتها كما سيأتي بيانه:

1. الصعوبة المعرفية: وهي تكمن في كوننا لا نتوفر على قائمة تجرد وتحصر الرموز البسيطة لأسماء العلم الحقيقية؛

2. كلما فكرنا في تأويل تجريبي ومادي للنموذج الإحالي بالمعنى الذي تكون فيه الماصدقات عبارة عن موضوعات ملموسة فيزيقيًا، نجد أن هذا التأويل لا يثبت إذ كلما تابعنا اكتساب اللغة لدى الطفل نجد أنها تلتصق بالأنطولوجيا في المرحلة الأولى، وسرعان ما تبعد عن الوجود ليتم اختزالها (= الأنطولوجيا) في اللغة.

وقد اختلف الفلاسفة طرائق قددًا بهذا الخصوص بين واقعيين واسميين وحدسيين وماديين ومثاليين إلخ. حتى سلم الكثيرون بما يفيد أن المسميات يمكن أن تكون، بالفعل "موضوعات مثالية" أو "مدلولات" (ذهنية أو واقعية، مثلًا) كما يمكن الإشارة الإيمائية Ostension gestuelle أن يصبح مثلًا بمثابة حدس تجريبي...

ومن الناحية الصورية الخالصة، ثمة مدلول إحالي نفهم منه شيئًا باعتباره يحمل معنى كيفما كان وضعه الأنطولوجي (الفيزيقي أو الذهني أو المثالي...)، وباعتباره يوجد مستقلًا عن هذه العلامة، ونحن نعلم أن فتغنشتاين في كتابه **رسالة منطقية فلسفية** لم يحسم في مسألة طبيعة المسميات الأولية:

1 Vernant, *Introduction à la philosophie de la logique*, pp . 221 - 222.

"ستوسع كل محاولة جادة في فلسفة المنطق واللسانيات في القرن XX، من راسل إلى كواين مجال الرابط بين المقولات Syncatégorème وستعمل على اختزال عدد المقولات الجزئي Catégorème أو الرموز البسيطة المشروعة، وستحدُّ بالتالي من المعضلة الأنطولوجية للغة إلى حد الذهاب، تقريبًا، إلى إنكار وجود هذه المعضلة مطلقًا بكيفية بسيطة.

وفضلًا عن ذلك، سيشهد هذا الميل، حركة أكثر توسعًا وانتشارًا وتعددًا في أشكال متنوعة من معنى الخطاب الحاصل في الفلسفة المعاصرة من الفينومينولوجيا إلى البنيوية مرورًا بالتأويليات (= الهيرمينوطيقا)"[1].

سوف نبرز، في هذا السياق، كيف استثمر كواين معطيات نظرية الرسوم الراسلية في معالجته لعلاقة اللغة بالوجود، فما يعنينا هنا هو رصد الآثار التي سيورِّثها راسل إلى كل من كارناب وكواين على مستوى تحديد علاقة الدلالة بالأنطولوجيا.

لقد حلل راسل العلامات الإحالية الشبيهة وقام بحل المعضلات السابقة. فبناء على اعتبار كل قضية ذات الصورة **موضوع محمول** يجب أن يكون موضوعها إما اسمًا أو عبارة اسمية يتمتع فيها المسمى المحال عليه بالوجود الحقيقي وإلا فستكون هذه العبارة خالية من المعنى. وهذا ما جعل راسل يرصد صورًا شبيهة لعبارات يبدو أنها تحمل مكونين هما الموضوع والمحمول كما وقف على عبارات يكون موضوعها اسمًا علمًا أو وصفًا محددًا دون أن يكون هناك وجود فعلي وحقيقي للمسمى أو للوصف المحدد.

1 Vernant, *Introduction à la philosophie de la logique*, pp : 222 - 223.

لقد تصدى راسل لهذه المسألة بأداة التحليل المنطقي وعرض المظهر اللغوي الشبيهي غير السليم مفضلًا عدم إسناد الوجود لموضوعات غير موجودة. وهكذا كشفت نظرية الرسوم المحددة عن الصورة اللسانية. فقد أنكر راسل أن يكون الموضوع حدًا إحاليًا (رمزًا بسيطًا) ليرفض، بالتالي، البنية الظاهرة لموضوع ومحمول العبارة مفضلًا إعادة كتابة العبارة كتابة منطقية.

ولكي نستوعب هذه الكتابة الجديدة يجب أن نستحضر في أذهاننا ما يلي:

(1) أن كل عبارة حملية ينبغي تأويلها باعتبارها عبارة ذات رابط بين المقولات أي باعتبارها رمزًا ناقصًا وغير إحالي؛

(2) من الممكن التعامل مع الأسماء والرسوم المحددة كمحمولات حتى حين يظهر أنها توجد، في الخطاب الطبيعي في وضع الموضوع. وهذا هو المبدأ الأساس للتسوير المنطقي للمحمولات:

مثلا، تصاغ العبارة: "كل المنازل حمراء" صياغة صورية كالتالي:

$$\Lambda \text{ س } (\text{ك(س)} \longrightarrow \text{ل(س)})$$

حيث تدل Λ على السور الكلِّي و"**ك**" على "المنازل" و"**ل**" على "حمراء". ومن الملاحظ أن الصورة التقليدية **موضوع محمول** قد تم تفكيكها إذ من البين أن المنازل كموضوع في العبارة "كل المنازل حمراء" أصبحت معفية من **الاقتضاء الإحالي** حين نُقلت إلى صورة منطقية. وهكذا ننتقل من العلامة البسيطة المفترضة أو المقولة إلى الرابط بين الجمل. فالعبارة الواردة في البداية تقتضي وجود منازل بينما نجد أن الصورة التي أجرت التحويل الحملي للموضوع لا تقتضي سوى أنطولوجيا عامة ومجردة أو فضفاضة

للأشياء بحيث نلاحظ أن:

(كل س أو "أيا كان س" أو Λ س...).

تفيد هذه الدعوى **النسبية الأنطولوجية** ويدعمها موقفان أساسيان هما:

ا/ الالتزام الأنطولوجي؛

ب/ وامتناع تحدد الترجمة،

وقد بنى "كواين" دعواه انطلاقًا من نتيجتين أساسيتين توصل إليهما في مبحث الدلالة هما:

- امتناع تحدد المعنى Indetermination of meaning؛
- امتناع تمحيص الإحالة Inscrutability of reference.

لقد انتبه كواين إلى ضرورة عدم التمييز أو الفصل بين المحتوى التجريبي والمحتوى الدلالي ذلك أن أعمق ما ذهب إليه إنما يتحدد في دعواه القاضية بإبطال التفريق بين التحليل والتركيب، وبالتالي القول **باستحالة التفريق التام بين المسائل الواقعية ومسائل اللغة**، وبين المسائل المنطقية والمسائل العلمية، وبالتالي أيضًا **بامتناع التفريق بين الفلسفة والعلم** ولعل الموقف الأخير هو ما يسم فلسفة كواين.

ولا ضير أن نذكِّر بأن موضوع الدلالة والأنطولوجيا مبحث طرقه مناطقة قلائل من بينهم فريغه وليسنييفكسي Lesniewski ورسل وغودمنGodman. ويمكن أن نعتبر أن كواين قد وسع مجال البحث في صلة المنطقيات بالأنطولوجيا [1].

1 Munitz, Milton K. (ed.), *Logic and Ontology*, New York University Press, 1973, P. 7. حيث أشار نيكولاس إلى "إمكانية إقامة جسور بين المنطق والأنطولوجيا قد مهدت لها أعمال كل من فريغه وراسل وكواين وغودمن.

2. النسبية الأنطولوجية بين المنطق المحمولي ونظرية التسوير:

يتخذ كواين موقفًا فريدًا من نظرية التسوير، ويذهب في ذلك مذهبًا خاصًا منذ أن تم إدخال الأسوار مع فريغه (1879) Frege. ويمكن أن نعرض موقفه كما ورد صريحًا في كتابه **مناهج المنطق** حيث عقد فقرة تناول فيها نظرية التسوير جاء فيها:

"يبدو، إذن، أنه بإمكاننا أن نتخلص من التسوير إذا كنا مستعدين للاتفاق، في كل الظروف، بكون فيها المجال س. عـ. ص مجالًا محدودًا ومتناهيًا وقابلًا للجرد Inventorié. ومع ذلك فلسنا مستعدين لذلك إذ من الأليق أن نسمح بإجراء تغييرات في اختيار المجال. وهذا لا يعود فقط إلى كون الفلاسفة مختلفين بخصوص حدود الواقع، وإنما يعود، أيضًا وكما سبق، إلى أن بعض الحجج المنطقية يمكن أن تتقلص إذا قلصنا مجال القول وحصرناه عُنوة في الحيوانات أو الأشخاص أو في عدد موظفي شركة ما.

وفضلًا عن ذلك نجد، إزاء معظم المسائل، أن مجال القول المخصوص يتضمن موضوعات لا نكون على الإطلاق، قادرين على جردها بالطريقة التي جردنا بها س. عـ. ص كما نجد أن المجال قد يضم، بالنسبة لكثير من المسائل، موضوعات لا متناهية العدد كالأعداد الطبيعية. ولذلك يمكن أن تتدخل الأسوار هنا [1].

1 Quine, *Méthode de logique*, trad. Fran. M. Clavelin, Eds. A. Colin, p. 129.
وقد نقلناه إلى العربية باعتماد هذه الترجمة الفرنسية ومقابلتها بالطبعة الإنجليزية الثالثة؛ وذلك لأن كواين نفسه أشاد بالترجمة الفرنسية التي قام بها موريس كلافلان. وترجمتنا لمناهج المنطق جاهزة تنتظر الناشر العربي.

يرجع سبب نفور كواين من التسوير إلى احترازه من أن تحمل الأسوار، في حد ذاتها، دلالة ذهنية. ومعلوم أن كواين قد تحامل على الذوات المجردة وعلى كل اعتراف بوجود معان ذهنية. وهناك سبب آخر يتحدّد في الالتزام الأنطولوجي الذي يفرضه علينا استعمال السور وخصوصًا السور الوجودي نحو:

Vس (س = غول)

فإذا علمنا أنه لا وجود للغول، فما هي الدلالة التي سيحصل عليها السور الوجودي؟ إنه وضع متناقض: إنني عندما أقول "**يوجد غول**" أكون قد أثبت بقولي هذا بأنه "يوجد **س لا** وجود له" أي "**يوجد س بحيث أن س غول وأن الغول غير موجود**". وقد تبين لنا فيما سبق أن كواين قد عالج هذه المسألة بناء على الالتزام الأنطولوجي ومعياره يقوم على المنطلقين التاليين اللذين سنبسط فيهما القول لاحقًا:

- الموجود هو القيمة الصدقية للمتغير؛

- لا وجود لذات بدون هوية.

هل يمكن أن نقف عند هذه النتيجة التي انتهى إليها كواين؟ إن للتسوير وظيفة منطقية وقيمة فلسفية في آن واحد، والاستغناء عن التسوير ممتنع التحقق وإن حاول كواين ذلك في الفصل الرابع عشر من كتابه **مناهج المنطق** حين ركن إلى اللسان الطبيعي في تناوله للحدود الكلية والأسوار حيث لاحظ أن الأسوار إن هي إلا تقييدات تقع تحتها عبارات قضوية بسيطة من قبيل ما يندرج تحت ما يلي:

(1) شيء ما **ك**.

(2) هناك وجود لـ **ك**.

(3) كل شيء **ك**.

وقد قدم هوكواي تفسيرًا لموقف كواين من الأسوار مفاده أننا عندما نسمي، انطلاقًا من المثال السابق، كل الأشياء أو الموضوعات التي يتضمنها مجال القول، فإننا سنفهم العبارتين (1) و(2) باعتبارهما تمثلان عبارة فصلية جد مطولة نحو:

ك (ب) V ك (ج) V ك (د) ك (هـ) V ...

كما سنفهم من (3) العبارة الوصلية المطولة:

ك (ب) Λ ك (ج) Λ ك (د) Λ ك (هـ) Λ ...

غير أن هذه الصيغ ليست مقنعة للأسباب التالية:

أولًا: لأنه لا يسوغ لنا أن نفترض أن لكل شيء أو موضوع اسمًا؛

وثانيًا، إذا كان مجال القول يشمل موضوعات غير متناهية فإنه سيلزمنا أن نضع صيغًا مطولة إلى ما لا نهاية من أجل التعبير عن هذه الموضوعات؛

وثالثًا، كما أثبت، رامسي Ramsey حين كان فتغنشتاين ينتصر لمنظور مماثل في **رسالته المنطقية الفلسفية** Tractatus Logico-Philosophicus بأنه حتى العبارة الوصلية المطولة، وإن كانت غير متناهية فإننا لن نتمكن من تحصيل معنى "كل شيء ع" Every thing is F . فالوصل لا يضمن أن يكون كل موصول مطابقًا لكل موضوع.

يمكن أن نترجم إلى لغتنا الطبيعية العبارة التي تفيد التسوير الوجودي- Existential quantification بـ ‹يوجد...› أو ‹بعض ...› ؛ والعبارة التي تفيد التسوير الكلي Universal quantification بـ ‹كل› أو ‹أي كان ...›.

ففي لغتنا يسهل أن ننطلق من العبارتين التاليتين:

1. هناك شيء ما يوجد مثل **ك**،
2. كل شيء يوجد على نحو ك.

ونمضي من هذه العبارة الجزئية:

3. يوجد ع تتصف بالصفة ك.

كي نستنبط اللزوم التالي:

ك (ع)، إذن Vس ك(س).

وبإدخال الضمائر أو المتغيرات ووضعها في مكان الأسماء داخل العبارات الذرية نكون إزاء عبارات غير محصورة لا تقول أي شيء عن الوجود الخارجي إلا عندما نحدد نحن ما تدل عليه هذه الضمائر أو المتغيرات. وعلى هذا النحو نحصل على العبارتين:

ك(س): توجد ك؛

ل(س، ع): هناك علاقة **ل** بين س و ع.

وهكذا ندخل الأسوار للتعبير عن "يوجد شيء ما بحيث..." و"كل شيء بحيث..." ونرمز لهما، على التوالي ب "Vس" و"Λ س".

يكمن اعتراض كواين في أنه من الخطأ أن نولي اهتمامًا فلسفيا كبيرًا للتصور الدلالي للأسوار. فعندما نتمعن في تأويلات العبارة غير المحصورة **ك(س)** التي تسمح بإسناد مختلف القيم الممكنة للمتغير "**س**"، فسوف يوجد، على الأقل، تأويل واحد تصدق العبارة غير المحصورة بالنسبة إليه. وهذا ما جعل كواين يعتقد أن الوجود إنما يكون **قيمة صدقية لمتغير ما**.

كما اعتقد كواين أنه بإمكاننا أن نستغني عن الحدود الشخصية أو الأسماء؛ ويمكن لمنطقنا أن يصبح مبسطًا إن نحن وضعنا محمولات خاصة مكان هذه الحدود الشخصية والأسماء مستعملين نظرية الرسوم/الأوصاف الرسلية (نسبة إلى رسل)[1].

يرى كواين في مقالته "**ملاحظات حول الوجود والضرورة**" أن هناك علاقة اقترانية بين الهوية والتعيين Identity and designation. ومن هنا، يرسم ضرورة الإحالة على الاقتران الموجود، أيضًا، بين التعيين والوجود: أي الوجود كما يعبّر عنه السور الوجودي الذي يدل دلالة منطقية على علاقة المتغير بالقيمة الصدقية التي نسندها إليه ليحصل على معناه من خلالها. وهكذا، تمكن كواين من اعتبار الموجود قيمة صدقية للمتغير في نوع من الأنطولوجيا الملتزمة بمتغيراتها الواقعة تحت السور.

1 Hookway, Christopher, *Quine: Language, Experience and Reality*, Stanford University Press, 1988, pp. 86 - 89.

لقد حدد كواين للمقالة المذكورة غرضين اثنين هما:

- مسألة قبول أو إقصاء الجهات المنطقية كالضرورة والإمكان ونحوهما باعتبارهما جهات تقترن بالعبارات؛

- مسألة الدلالة الأنطولوجية للأسوار، وخصوصًا السور الوجودي. ويرى **لينسكي** Linsky أن كواين يتطرق في هذه المقالة إلى مشكلات الهوية والتعيين والأنطولوجيا والجهة.

يميز كواين في المقالة المذكورة، أيضا، بين ما يسميه **المواقع التعيينية** Désignative occurrences **والمواقع التعيينية الخالصة** Purely designative للأسماء والمواقع غير المعينة التي تصاغ بالاستناد إلى **مبدأ قابلية الإبدال** Principle of Substitutivity.

إن ما يستأثر باهتمامنا في هذه اللحظة هو اقتران التعيين بالهوية، وبالتالي ارتفاع كون التعيين يفيد الهوية بدليل أن العبارة:

(1) طه حسين **هو** عميد الأدب العربي؛

لا تلزم عنها العبارة (3) من طريق العبارة (2):

(2) سمي طه حسين عميد الأدب العربي لنبوغه الأدبي.

فبناء على العبارة (1) واستنادًا إلى مبدأ قابلية الإبدال نقول بأن هوية "طه حسين" تتحدد بكونه "عميد الأدب العربي". غير أننا لا يمكن أن ننتقل من الهوية إلى التعيين بإبدال "طه حسين" في (2) ب "عميد الأدب العربي" في (3):

(3) سمي عميد الأدب العربي طه حسين لنبوغه الأدبي.

إنها عبارة كاذبة، وبالتالي فلا يقترن التعيين بالهوية.

لنعد إلى التسوير ولنتابع، مع كواين، ما أقدم عليه من اعتراض على نظرية المنطق المحمولي، إذ لم يكن كواين الوحيد الذي اعترض على دلالة الأسوار. فهناك، في الواقع، أسلوبان متميزان في تناول الأسوار. فهناك التأويل الموضوعي والتأويل الإبدالي:

فالتأويل الموضوعي يقتضي استدعاء **قيم المتغيرات والموضوعات** التي تعينها هذه المتغيرات نحو:

(1) "Λ**س ك(س)**" التي تؤول بـ"بالنسبة لكل الموضوعات، **س، في، مجا، ك(س)**".

(2) "V**س ك(س)**" التي تؤول بـ"يوجد على الأقل موضوع واحد، **س**، في المجال **مجا، ك(س)**".

نجد في كلتا الصورتين أن التطابق لا يحصل بين التعيين والهوية. يكون المجال، **مجا**، حسب نظرية النماذج theory of Models عبارة عن مجموعة من الموضوعات المتعينة داخل متوالية من المتغيرات كالأعداد الطبعيية، أو الأشخاص، ...،إلخ؛ بينما تقتضي المقاربة المطلقة absolute approach أن يكون المجال **مجا** عبارة عن "**مجال**" Univers أي عبارة عن مجال يشمل كل الموضوعات الموجودة.

لا تكون المجالات المحصورة المتعينة كما بيّنته مقاربة نظرية النماذج Model - theoritic approach، بالضرورة، مجموعات جزئية من العالم، ولا من الخصائص المتخيَّلة Fictional Characters، التي لا يمكن أن توجد في الواقع.

ومن هنا لا يكون العالم أو المجال مجالًا أو عالمًا موضوعيًا، ولذلك فإن الوجود لا يحصل إلا بإسناد قيمة للمتغير، وبالتالي، فإن الوجود هو **القيمة الصدقية لمتغير ما** [1].

بيد أن التأويل الإبدالي لا يستدعي القيم، وإنما يقتضي وجود البدائل للقيم أو العبارات التي يمكن أن تكون بديلة عن متغيرات تنوب منابها وتسد مسدّها نحو:

Λس ك(س) تؤول بـ"" كل البدائل المثيلة لـ ‹ك...› تكون صادقة"".

Vس ك(س) تؤول بـ"" هناك على الأقل بديل واحد مثيل لـ ‹ك...› يكون صادقًا.

يظهر أن كواين قد اعترض على الموقف الذي يتبنى التقريب المطلق ويعود سبب نفوره من القول بالتأويل الإبدالي إلى رفضه للتحليلية، وإبطاله للترادف. وهكذا انتصر كواين وديفيدسن وآخرون للمقاربة التأويلية الموضوعية.

ويتضح ذلك من خلال ما لعبه هذا الموقف من دور كبير في إسناد دعاوى كواين الأنطولوجية القاضية بوجود فكرتين توجهان التصور الأنطولوجي لفلسفته تستضيء بهما انتقاداته لمعتقدي النزعة التجريبية المنطقية:

أولاهما:

"إن الوجود هو القيمة الصدقية للمتغير":

To be is to be a truth - value of the variable

1 Haack, Susan, *Philosophy of Logics*, Cambridge University Press, 1978, ch. 5, § 4.

ولعل هذه الفكرة هي التي وجهت انتقاد كواين وتحفظه بخصوص نظرية التسوير؛

وثانيهما:

"لا ذاتية بدون هوية":

No entity without identity

لقد تذبذب رسل بين الموقفين: التأويل الموضوعي والتأويل الإبدالي، ولم يسعفه في هذا إلا أن يتبنى الموقف الأول ويهذبه مستفيدًا من نظرية الرسوم. فمن بين أهداف هذه النظرية حل مشكلة السور الوجودي لينفتح على قبول ذوات مجردة من قبيل المجموعات والفئات أو الخصائص والأعداد ونحوها.

وقد بين رسل الرسوم المحددة التي تظهر في العبارات من قبيل "الملك الحالي لفرنسا" و"كاتب الأيام" (= طه حسين)، وعمومًا العبارات التي تشاكل الصورة "**الكذا وكذا**" The so and so حيث يستعمل أداة التعريف للإشارة إلى الوحدة.

يتعامل رسل مع هذه العبارات باعتبارها "رموزًا غير مكتملة" incomplete symbols لا معنى لها خارج السياق؛ غير أنها تساهم في معنى العبارة التي تقع فيها، إذ تقع في مركبات عبارات النحو الكلاسيكي.

وهكذا تجعلنا نظرية رسل نأخذ بكل معاني العبارات التي تتضمن الرسوم المحددة باعتماد ما يسمى بالتعريف السياقي. ومع ذلك، لم يأخذ كواين بالتعريف السياقي، بل إنه قيّد مجال تأويل الذوات المجردة وفق مبدئين أشرنا إليهما أعلاه وهما: "**أن يوجد موجود هي أن يكون قيمة لمتغير**" و"**لا ذات بدون هوية**".

وهكذا أضحى **معيار الالتزام الأنطولوجي**

creterion of ontological commitement أساسًا لتصور كواين الاسمي؛ ويمكن أن نرصد موقف فيلسوف هارفارد من المحمولات من خلال عرض معياره الأنطولوجي.

فكيف اقترن معيار الالتزام الأنطولوجي باعتراض كواين على الأسوار؟

سوف نحاول أن نجيب عن هذا السؤال من خلال عرض كواين لمعياره الأنطولوجي واعتراضه على وجود الذوات المجردة. يقول كواين بهذا الخصوص:

"تكون ذوات من صنف معطى مستوعبة داخل نظرية معينة إذا وفقط إذا وُجد اعتبار هذه الذوات من بين قيم المتغيرات بحيث تصبح العبارات المثبتة في هذه النظرية عبارات صادقة" [1].

يمكن للقارئ الفطن لهذا النص أن يلمس إدخال اعتبارات ذريعية من قبل كواين. غير أن ما هو أساسي عنده هنا هو تقييد الذات بالقيمة الإسنادية للمتغير. وهنا يتبنى موقف التأويل الموضوعي. وعند تقييد الذات بالقيمة الإسنادية للمتغير تحصل على هويتها فلا ذات بدون هوية.

1 Quine, *From a Logical Point of View*, Harper & Row, 1963, p. 103.

ولكي يعزز كواين هذا الموقف، انتقل إلى السور الوجودي الذي يخلق متاعب كثيرة ليعطيه دلالة تشدّه إلى المبدئين السابقين:

"إن القول بأن عملية تسويرٍ وجودي معطى تفترض وجود موضوعات من صنف محدّد يعني، بكل بساطة، أن العبارة غير المحصورة التي تقع تحت السور تصدق على بعض الموضوعات من هذا الصنف ولا تصدق على صنف آخر"[1].

حين أتلفظ بالعبارة:

(...) Vس (س = العنقاء).

فهل يعني قولي أن ما يقع تحت السور الوجودي الجزئي يدلُّ على الوجود الحقيقي لقيمة متغير **س**؟ يقطع كواين بالنفي: إنني لا أعني في هذه العبارة أكثر من أن الموضوع الذي أتكلم عنه لا وجود له، وبالتالي فعبارتي كاذبة لأن العنقاء لا توجد إلا كقيمة لمتغير **س**؛ ولما انعدمت هذه القيمة انعدم معها التزامي الأنطولوجي: **فلا ذاتية بدون هوية**.

وبهذا الصدد، تسجل سوزان هاك الملاحظة التالية:

" تكمن الفكرة، بوضوح، في أن أحدًا ما يقول بما تثبته النظرية من موجودات فيُضمّه في حساب محمولي ثم يتساءل عن أي صنف من الموضوعات تتخذه النظرية كقيم لمتغيراتها إذا كانت المبرهنات تبتدئ بـ "Vس.." صادقة (ومن ثمة "Vس س عدد أولي وس > 1.000,000) مبرهنة تكون ملتزمة بوجود الأعداد الأولية بل وتلتزم حتى بوجود الأعداد أصلًا"[2].

1 Quine, *From a Logical Point of View*, p. 131.

2 Ibidem.

وهكذا انتهت سوزان هاك إلى وضع خطاطة (انظر آخر الفقرة: 3-2- القيمة الفلسفية للنسبية الأنطولوجية) حيث حدّدت موقع كواين واعتراضه على الذوات المجردة من جهة، وبينت رفضه لنظرية التسوير من الدرجة الثانية [1] من جهة أخرى. فقد أوضحت هاك كيف استفادت رؤية كواين من نظرية الرسم الرسلية ومن إقصاء الحدود الشخصية.

وذلك، فضلًا استفاده كواين مما أثبته تارسكي A. Tarski في نظريته الدلالية للصدق حين بحث مفهوم الصدق في اللغات الصورية [2] وقد ركزت في هذه الخطاطة على التأويل الموضوعي إلى جانب الدور الكبير الذي لعبه معيار الالتزام الأنطولوجي.

نستخلص مما سبق أن كواين قد اعترض على المحمولات من الدرجة الثانية لأنها تلزمه بالاعتراف بوجود **ذوات مجردة**، ولذلك قيّد نظرية التسوير **بالالتزام الأنطولوجي**، وحصر دلالة الأسوار في التأويل الموضوعي مقتفيًا النزعة الماصدقية لدى تارسكي في نظرية النماذج، ومؤيدًا نظرية الرسم الرسلية في بعدها التقني.

3 . النسبية الأنطولوجية بين الدلاليات وفلسفة المنطق:

تقترن دعوى النسبية الأنطولوجية لدى كواين أيّما اقتران بتصوراته الدلالية ونتائج مواقفه الفلسفية من المنطق، خصوصًا نظرية التسوير

1 Haack, *Philosophy of logics*, op. cit. ch. 5.

2 Tarski, Alfred, "The concept of truth in formulazed languges" In *Semantics, Meta-mathematics* ; Oxford University Press.1936, pp. 152-278.

والمنطق الموجه. فقد شارك في حل المعضلات التي طرحت بإلحاح في حقلي الرياضيات والمنطق؛ تلك المعضلات التي تعلق معظمها بالمسائل الأنطولوجية.

فمنذ أن طرح رسل سؤالًا فلسفيًا في محاضراته الأخيرة (1918) **فلسفة الذرية المنطقية** [1] "ما هو أصغر عدد للموضوعات غير المحددة البسيطة الذي ننطلق منه، وما هو أصغر عدد للأوليات غير المبرهنة التي يمكننا أن نحدّد من خلالها الموضوعات التي تحتاج إلى التحديد ونثبت الموضوعات التي تحتاج إلى إثبات؟" وقد انتهى رسل في إجابته إلى وجوب إعمال المنطق الرمزي للإجابة على هذا السؤال.

وفي المحاضرات التي ألقاها جورج مورG. Moore ما بين 1910 و1911 وجد توضيحًا لأبرز الموضوعات التي حاول الفلاسفة معالجتها والتي حصرها جورج مور في هدف واحد يكمن في تقديم وصف عام للعالم ككل بذكر الأصناف من الموجودات التي تعْمُره.

وقد حاول كواين أن يقدم جوابًا عن التساؤلات الأنطولوجية في صورة جديدة. ففي مقالته "**في الموجود**" ظهر أنه قد عالج التساؤلات الوجودية العامة؛ في حين نجده قد انطلق من مقدمات لخصها كما يلي:

- يجوز لي أن أستعمل الحدود الشخصية من قبيل "**العنقاء**" بحيث تكون ذات معنى دون أن يقتضي مني ذلك التسليم بوجود ذوات تسميها هذه الحدود؛

1 Russell, The Philosophy of logical atomism ; cité in IHam Dilman, *Quine on ontology, Necessity and Experience*, State University of New York, 1983.

- يجوز لي أن أستعمل حدودًا عامة نحو "**أحمر**" دون أن ألزمها بأن تسمي ذواتًا مجردة؛
- يجوز لي أن أعتبر أن أقوالي ذات معنى باعتبارها مترادفة أو متباينة دون أن أفترض وجود عالم من **الذوات** التي تُسميها هذه **المعاني**.

يرى كواين أنه لا مجال لأن نأخذ بوجود **موضوعات ممكنة** Possible objectsأو **ذوات مجردة** أو حتى **بوجود المعاني**. فهو يعتقد أن وجود **عوالم ممكنة** ضرب من ضروب الهوس الميتافزيقي الذي ينحدر إلينا من أفلاطون.

ويعود موقف كواين هذا إلى إبطاله للفصل بين القضايا التحليلية والقضايا التركيبية، وإلى التزامه بعدم التفريق بين العلم والفلسفة الذي اقتضى منه بالضرورة الاعتراض على أنطولوجيا كارناب الذي ميز فيها بين **الأسئلة الداخلية** Internal questions **والأسئلة الخارجية** External questions معتبرًا أن هذا الصنف الأخير من الأسئلة هو الذي يقحمنا في الفلسفة، وبالتالي في الميتافزيقا.

وأما كواين فقد بين أن من أسباب قبول صور وأشكال أنطولوجيا مُتخمة Bloated ontologies، على حدّ قوله، الخرافة الأفلاطونية القاضية بوجود معان كلّية وجودًا أنطولوجيًا متعينًا في عالم المثل.[1] وتعرف هذه المسألة بـ "لحية أفلاطون" Plato's beard حيث تكمن المفارقة في أنني لو قلت العبارة التالية: " الفرس الطائر غير موجود"، فإن عبارتي هذه لا يمكن أن تصدق أو

1 Quine, "On What There is", First published in Review of Metaphysics, 1948 ; and reprinted in From a Logical Point of View Harvard University Press.1953.

تكذب ما لم توجد فكرة "الفرس الطائر" حتى يمكن لي أن أحكم بوجود هذا الطائر من عدمه.

وقد سبق ماينونغ أن سار على نفس المنوال حيث ذهب مذهبًا انتهى فيه إلى وضع **نظرية في الموضوعات أو الأشياء** نلخصها في ما يلي:

(1) ليس الشيء هو ما يتشيأ في العالم الخارجي فيمتد كشاهد بتموضعه بل قد يكون وجود الشيء أو الموضوع حاصلًا في الوهم أو في الإدراك دون أن يكون موجودًا متعينًا [1]. وباختصار هناك **موضوعات لا وجود لها**.

(2) يقبل كل شيء أن نتخذه موضوعًا كائنًا ما كان متعينًا في الأعيان أو مدركًا في الأذهان أو منطوقًا في اللسان: فسواء أدركناه أو كان قابلًا للإدراك Thinkable أو لم يكن كذلك بدليل أنه إذا كان هناك شيء لا يمكن إدراكه، فهناك شيء يتصف بهذه الصفة أي الامتناع عن الإدراك، وبالتالي فهو موجود على نحو ما [2].

تمثل (1) و (2) قاعدتين أساسيتين لنظرية الموضوع Gegenstands theo-rie عند "ماينونغ". وتنتهي القاعدة الثانية إلى النتيجة التالية: يكون كل موضوع لا وجود له مبنيًا بصورة أو بأخرى بحيث يقبل أن يصير، مع ذلك، موضوعًا للحمل نحو "العنقاء طائر عظيم" أو "الجبل الذهبي" "المربع الدائري" إلخ.

---

1 يذكرنا هذا بشيئية المعلوم عند المعتزلة كما يذكرنا بموقف "إبراهيم بن سيار" النظام من القسمة الوهمية الحاصلة في الاعتبار الذهني، راجع:
Nicholas Rescher, 1973, "The ontology of the Possible" in *Logic and Ontology*, ed. By M. K. Murnitz, New York University Press.

2 يميز "ماينونغ" بين الموجود و(Dasein) والموجود على نحو ما (Sein So =).

لقد تعامل الميتافزيقيون القدامى مع الموضوعات الموجودة تعاملهم مع ذلك الذي يوشك ألا توجد Bestehen غير أنهم ظلوا يحملون حكمًا مسبقًا لصالح ما هو حقيقي وبالتالي ظلوا يميلون إلى النفور من الموضوعات التي لا تتوفر على وجود فعلي وحقيقي. وعلى هذا الأساس صاغ "ماينونغ" **نظرية الموضوع** التي انطلقت مما يلي:

(أ) كل شيء قابل لأن يكون موضوعًا سواء أكان قابلًا للإدراك أم لم يكن (= إذا كان هناك شيء لا يمكن إدراكه فهناك وجود لشيء ما لا يمكن إدراكه بحيث يتصف بهذه الصفة بل إنه يكون كذلك سواء توفر على خاصية الوجود أم لا.

(ب) هناك فرق بين الموضوع الموجود **والموضوع الموجود على نحو ما** لأن صفة ما يكون عليه وجود أي موضوع خاصية مستقلة عن وجوده.

فال "**مربع الدائري**" صفة للموجود رغم أنه **موضوع مستحيل** بماله من صفة وجود متناقضة إذ يرتفع أن يجتمع لشكل هندسي أن يكون وجوده مربعًا ودائرة في نفس الوقت. وكذلك ما يمكن تصوره مع عدم وجوده في الحقيقة **كالجبل الذهبي**، فإنه لا يجتمع لجبل أن يكون جبلًا وجبلًا مكونًا من ذهب في آن واحد.

فعندما نقول الدائرة مربعة فإننا **نخرق قانون الثالث المرفوع** بينما لا يحصل ذلك لو قلت: "جبل الجبن". ولهذا فإننا سنقبل العبارة الأخيرة ونرفض سابقتها؛ غير أن ماينونغ يعتبر أن العبارات أو الحدود التي تخرق قانون الثالث المرفوع Contradictory So-sein منها ما يحصل في التصور ومنها ما يمتنع.

وعمومًا فهي كلها عبارات صادقة تصدق على موضوعات غير موجودة [1].

أما كواين فقد انطلق من المبادئ التالية:

- **المبدأ الأول م1**: "لا تُحِل على موضوع لا وجود له"؛
- **المبدأ الثاني م2** "هناك فرق بين التسمية naming والإحالة refering "؛
- **المبدأ الثالث م3** : " أن يوجد الموجود هي **أن يكون قيمة للمتغير**"؛
- **المبدأ الرابع م4**: "**لا ذاتية بدون هوية**" [2].

وتعتبر مقالة كواين **في الموجود** ومقالة كارناب "**التجريبية والدلاليات والأنطولوجيا**"[3] مقالتان أساسيتان عالجتا القضايا المزمنة في مجال الأنطولوجيا ويظل ما قدمه كواين جد متقدم. فقد بسط القضايا الأنطولوجية بردها إلى السؤال ما الموجود؟ ومن المعلوم أن هذا السؤال يتعلق بمبحث الوجود خصوصًا وجود الموضوعات أو الذوات كالفئات والأعداد والخصائص... إلخ.

---

1 See "Meinong" in *The encyclpedia of Philosophy*, Paul Edward edition New York Macmillan 1967.

وانظر بالخصوص:

J.M. Hinton, "Quantification, Meignonism and the Ontological Argument"; The Philosophical Quaterly Vol. 22, Issue 87 ; 1April 1972. Pages 97-10§9. https://doi.org/10.2307/2217538

2 "Don't refer to what isn't".

- "There is a difference between naming and refering".
- "To be is to be a truth value of a variable".
- "No Entity without Identity".

3 Carnap, "Empiricism, semantics and ontology" ,Revue Internationale de Philosophie 4, 1950, pp. 20-40 reprinted in The supplement to Mearing and Necessity, A study In Semantics and Modal Logic, enlarged edition, 1956. The Univesity of Chicago Press. Chicago.

يعتقد كواين أنني عندما أقول "**العنقاء غير موجودة**" فإنني بقولي بعدم وجود العنقاء لا أدعي أن لـ "العنقاء" وجودًا بل إن ما أقوله، بكل بساطة، هو أن جملتي تتضمن لفظًا لا معنى له، وبالتالي لا تقول العبارة "العنقاء غير موجودةٌ" أكثر من نفي وجود معنى "العنقاء" أو كل موضوع من هذا القبيل:

"إذا نفيت وجود "العنقاء"، فسأبدو كما لو كنت أقر بأن لكلمة "عنقاء" معنى. ومن هنا، فإن عبارتي السالبة تتضمن كلمة خالية من المعنى، وبالتالي فعبارتي نفسها خالية من المعنى. ولكي أحمي عبارتي السالبة بخصوص العنقاء من الوقوع في عداد العبارات الخالية من المعنى أكون، على ما يبدو، مضطرًا إلى إضافة ذات تسميها لفظة عنقاء.

والحال أن العنقاء نفسها لا يمكن أن تكون الموضوع الذي أحصل عليه بما أنني قد أثبت، منذ قليل، أنه لا وجود لموضوع من هذا القبيل. ونتيجة لذلك نكون قد أنسقنا إلى **عوالم غير حالية** **unactualized** worlds ولربما انتقلنا إلى استحالات غير راهنة تكون بمثابة ذوات تسميها لفظة عنقاء"[1].

لا وجود لأي مجال من المجالات كائنة ما كانت تحتوي العنقاء، إذ لا هوية لها، ولا وجود لعام ممكن يضم من بين موضوعاته العنقاء؛ ولهذا، يعتبر كواين، إذن، أن من يقول بضرورة الإحالة على ما لا يوجد في العبارة "العنقاء غير موجودة" يقع في تناقض فبافتراضه وجود ذات تسميها "العنقاء" يقع في العبارة المتناقضة "هناك ذات تسميها العنقاء غير موجودة" أي "شيء ما أو موضوع ما موجود غير موجود".

1 Quine (1952), "On What There Is", Revue of Metaphysics ; 1948. Reprinted in From a Logical Point of View (1969),1953. Harvard University Press.

وإذا عدنا إلى ماينونغ، فإننا لا نحصل على هذه العبارة المتناقضة إلا بخصوص العبارة التي تخرق قانون الثالث المرفوع أي الموجود على نحو متناقض مع ذاته ومثاله "الدائرة المربعة" وأما الموجود على نحو ما غير متناقض ك"العنقاء" و"الفينق" و"الغول" فإنه لا يوقعنا في التناقض.

لقد انطلق كواين من أعمال رسل خصوصًا نظرية، هذا الأخير، حول الرسوم، فمن بين أهداف هذه النظرية تقديم حلول للمعضلة التي جاءت في نص كواين السابق. فالرسم المحدد يكون من قبيل الملك الحالي لفرنسا و"المؤلف الذي كتب ويفيرلي" و"الرجل الموجود في البحر". وهي جمل ناقصة وتكون عمومًا على نحو "الكذا والكذا" حيث "ال" تكون مستعملة لإثبات الوحدة uniquenes .

وهنا، يتعامل رسل مع هذه العبارات انطلاقًا من كونها **رموزًا غير تامة** ه incomplete symbols لا تحصل على معناها خارج سياق العبارة غير أنها تساهم في فهم معنى السياق الذي ترد فيه.

لقد اعتمد رسل المنهج التحليلي الذي سمح له بإعادة الاعتبار للوجود بضبطه وتحديده بما ينضبط للشروط الأربعة التالية:

1. تقديم صورة وصفية طبيعية كانت أم اصطناعية إن اقتضى الحال، لهذه الكلمة المعطاة؛
2. بما أن التعبير الوصفي رمز غير مكتمل، فينبغي حصره في سياق محدد حتى يسهل علينا أن نعرفه؛
3. تقسيم القضية التي نحصل عليها إلى ما أمكن من القضايا الجزئية؛

4. تسوير الدوال القضوية المطابقة أي بعبارة أخرى، تقييد المتغير **س** الذي يظهر فيها.

تزودنا نظرية الرسوم، إذن، بمعان لكل العبارات المتضمنة في الرسوم المحددة (باعتبار ما يسمى **بالتعريف السياقي** contextual definition غير أنها لا تتمكن من تزويدنا بمعان لجمل ناقصة من هذا القبيل بمعزل عن السياق الذي ترد فيه Sentence context . فقد نعتبر أن "الفينيق"، مثلًا، اختزال للجملة الوصفية الناقصة "الطائر الذي ينبعث من رماده" أو " الطائر الذي اصطاده "بيلوروفون".

فكل جملة تتضمن هذه الجملة الناقصة يمكن أن نترجمها بما يتفق ونظرية رسل إلى جملة لا تتضمنها بل تتضمن ما يكافؤها في اللغة من المتغيرات المقيدة بـ "كل شيء.."، و"لا شيء..."، و"بعض..." وبما أن كل الأسماء يمكن حسب كواين أن نحذفها بفضل الرسوم، **فإن المتغير المقيد يصبح آخر قناة بين المسمى (أو المحال عليه خارج اللغة) واللغة**.

يتخيل كواين في مقالته "في الموجود" شخصًا ما اسمه **ص س ء** يدعي أن العنقاء موجودة ولا يمكن إلا أن تكون موجودة. وإلا بات من غير المعقول أن نتكلم عنها حتى باعتبارها غير موجودة وفي مقابل **ص س ء** افترض كواين وجود شخص آخر يخالفه هذا الرأي تمامًا، حيث يدعي أن العنقاء موجودة غير أن وجودها غير حالي أي أنها **كائن ممكن**.

من الملاحظ أن **ص س ء** ومُحَاوِره يقر كل منهما، بطريقته الخاصة، بأن "هناك شيء ما غير موجود" لا معنى له إلا إذا كان "شيء ما" يتوفر على معنى معين [1].

1 Quine (1953), *On What There is*, op.cit, p. 1-19.

من الملاحظ أن هناك التباسًا يقع من جراء الخلط بين لفظة "عنقاء" والموضوع الذي تسميه "العنقاء". وينضاف إلى هذا الالتباس اعتبار معنى عنقاء **كذات مجردة**.

ولكي يتخلص كواين من هذه المعضلة قدم لنا ما يعرف بمعياره الأنطولوجي لتحديد وضع الأسماء الأصيلة Les noms authentiques تمييزًا لها عن الحدود التي تطابق ذواتًا موضوعية.

ويمكن أن نعيد صياغة الاسم "المعدة" في الرسم المحدد التالي:

"**شيء ما اسمه المعدة موجود**" أو "**يوجد شيء ما يسمى المعدة**" وهذا يعني أن "المعدة" هي ما يقوم مقام المتغير **س** في التالي : ∨**س (... س ...)** أو أن نعتبر أن "المعدة" هي **قيمة للمتغير س** ويستتْبع هذا أن **الوجود هو قيمة المتغير س**.

وتتوقف هذه القيمة على موضوع يوجد بالفعل. ولكي يكون القول صادقًا يجب أن تكون إذن الذات **التي تأخذ قيمة المتغير س** مستوعبة ومتحققة: "لا ذاتية بدون هوية" وحتى نتبين ذلك لنفحص **معيار الالتزام الأنطولوجي** في إطار علاقة التسوير بالأنطولوجيا ثم في نطاق دعوى النسبية الأنطولوجية.

1.3 معيار الالتزام الأنطولوجي
Criterion of Ontological Commitment :

يمكن أن نعتبر الأنطولوجيا فرعًا من فروع الميتافزيقا، ومجالًا فكريًا يتعلق بمبحث الوجود، وهو ينظر في أي صنف من الموجودات يتمتع بالوجود، وتأتي مساهمة كواين- كما بيّناه- في سياق أعمال كل من رسل وكارناب غير أنها تبقى مساهمة ستشهد كثيرًا من الردود وستثير العديد من المناقشات.

وتتلخص آراء كواين الأنطولوجية في الفكرتين الأساسيتين اللتين أشرنا إليهما سابقًا، وهما:

(أ) الموجود هو القيمة الصدقية لمتغير ما، بمعنى أنه لكي يوجد الموجود يجب أن يكون قيمة لمتغير؛

(ب) لا ذاتية بدون هوية.

ويلزم عن (أ) **معيار الالتزام الأنطولوجي** وهو ينظر في **اختيار أي الأصناف الموجودة تسمح بها النظرية**؛ وأما ما يلزم عن (ب) فيتحدّد في ما يسمح بإدخال "**معايير المقبولية الأنطولوجية**" standards of ontological admissibility وتفيد هذه المعايير في تحديد الذوات التي يسمح لها وحدها بأن ينضاف إليها **معيار الهوية** أو بأن تحصل على ما يناسبها لكي تكون لها هوية.

يوفر **معيار الهوية** الشروط التي تجعل الموجودات المعطاة متماثلة بمقتضاه: تكون المجموعات متماثلة إذا كانت لها نفس العناصر، ويكون شيئان ماديان متماثلين إذا كانا يشغلان نفس الحيز الزمكاني. ومن البين أن هذه الأصناف من الذوات تكون وحدها مقبولة بحيث يمكن أن يخصص لها معيار الهوية.

لقد حاول كواين في مقالته "**ملاحظات في الوجود والضرورة**" أن يعالج مشكلات تتعلق **بالهوية والتعيين والأنطولوجيا والجهة**. فقد ميز بين ما سماه **المواقع التعيينية الخالصة** للأسماء **والمواقع غير التعيينية الخالصة**. وقام بتحديد مبدأ الإبدال الذي يفيد أن "عبارة صادقة تثبت الهوية حين يكون أحد حدّيها قابلًا لأن يحلّ محلّ الحدِّ الآخر وينوب منابه

في كل عبارة صادقة، بحيث يكون الحاصل عبارة صادقة[1].

وعلى الرغم مما على هذا المبدأ من وضوح، يبقى من السهل أن يتمّ خرقُه. يضرب كواين المثال التالي:

1. تيغوسيكالبا= عاصمة الهندوراس؛

2. يعتقد زيد أن تيغوسيكالبا توجد في نيكاراغوا.

الآن نلاحظ أن كلًّا من 1 و2 عبارتان تجريبيتان صادقتان غير أننا حين نضع "عاصمة الهندوراس" مكان "تيغوسيكالبا" فإننا سنحصل على عبارة كاذبة:

3. يعتقد زيد أن عاصمة الهندوراس توجد في نيكاراغوا.

إن العلاقة التي تربط الاسم بالموضوع الذي يسمِّيه هذا الاسم **علاقة تعيين**. وهكذا فإن اسم "شيشرون" تعين شيشرون. وعلى هذا الأساس فإن وقوع اسم في سياق يكون فيه دالًّا على الموضوع المعين هو ما يسميه كواين الوقوع "التعييني الخالص". **وعندما يفشل الإبدال في أن يطبق على مواقع معينة للاسم، فإنه يكشف أن الوقوع الذي فشل فيه وقوع غير تعييني خالص: أي أن الإبدال يدل على أن هذا الوقوع ليس خالصًا؛ وهذا بمعنى أن الاضطراب نفسه يقع حتى عندما ندخل الجهات.**

لقد نسق كواين بناءات مماثلة اختبر فيها جهات كالضرورة والإمكان زادت من ترسيخ الاقتصاد في المفاهيم الذهنية لديه. وذلك، لأنه لم يكن، فيما يرى

1 Linsky, Leonard, *Semantics and the Philosophy of language*; A collection of readings, edited by Leonard Linsky, Univesity of Illinois Press, Urbana and Chicago, 1952. And Illinois books edition 1970.

لينسكي، أول من حاول رفع المفارقات من قبيل ما أوردناه. فقد سبقه راسل إلى ذلك كما سبقت الإشارة، فكانت نظرية الرسوم تسعى لحلّ معضلات من قبيل الاعتقاد في وجود ذوات مجردة وجودًا مستقلًا على نحو واقعية المثل عند أفلاطون.

يعد معيار الالتزام الأنطولوجي من الأدوات التي وضعها كواين ليتوسل بها لإقصاء الذوات المجردة والمعاني الذهنية. فما هو هذا المعيار وما هي حدوده الإجرائية؟

يقترن الالتزام الأنطولوجي، باعتباره معيارا، **بالتأويل الموضوعي للأسوار**. فقد صاغ كواين هذا المعيار في صور متنوعة لم تكن متكافئة دائمًا:

"تكون ذوات من صنف معين مفترضة في النظرية **إذا وفقط إذا كان يلزم اعتبار بعضها من بين قيم المتغيرات؛ وذلك لكي يتأتى أن تكون العبارات المثبتة في النظرية صادقة**"[1].

"إن القول بأن التسوير الوجودي يقتضي موضوعات من صنف معين، هو القول بكل، بساطة، **بأن العبارة غير المحصورة التي تقع تحت السور تصدق على بعض الموضوعات من هذا الصنف ولا تصدق على موضوعات من ذلك الصنف**"[2].

1 Quine (1953), "Logic and Reification of Universals", *in From a Logical Point of View,* op. cit., p. 103.

2 Ibid., p. 131.

وعلى العموم، يمكن أن نلخص فكرة كواين في الصورة التالية: يكون على شخص ما، إن هو أراد أن يبين ما تقول النظرية بوجوده، أن يلتزم بصوغ كلامه في صورة تخضع **لشروط الحساب المحمولي**. ومن هنا **يغدو أي صنف من الموضوعات عبارة عن قيم لمتغيرات هذه النظرية** إذا كانت المبرهنات التي تنتمي إلى "Vس ..." يلزم أن تكون صادقة:

"تعني الأسوار "Vس..."، و"Λس..."، و"**هناك ذات ما س بحيث...**"، و"**كل ذات س هي بحيث...**"؛ أما الحرف "س" المسمى هنا المتغير المقيد فهو يشبه نوعًا ما، الضمير، أنه واقع تحت السور ليفتح هذا السور على ما سيسند إليه لاحقًا. فهو، إذن مستعمل في النص التالي لتعود دلالته على السور المخصوص.

فالترابط بين التسوير والذوات التي تقع خارج اللغة كالكلِّيات أو الجزئيّات يتوقف على كون صدق أو كذب العبارة المُسوَّرة يتبع، عادة، في جزء منه ما نعترف به في **متوالية الذوات المستدعاة بواسطة الصيغ نحو**"بعض الذوات "س" و "كل ذات س" المسماة **بقيم المتغيرات**.

إن تعامل الرياضيات الكلاسيكية مع الكلِّيات وإثباتها لوجود المتغيرات، يعني أنها **تتخذ الكليات كقيم لمتغيراتها المقيدة**. فعندما نقول مثلا: V س (س عدد فردي وس > 1.000.000)؛ فإننا نعني أن هناك شيء ما بحيث يكون فرديًا وأكبر من مليون، وأن هذا الشيء عدد، وبالتالي فهو كلِّي. وعمومًا تكون الذوات من هذا القبيل "مفترضًا بها في نظرية ما إذا **وفقط إذا كان بعض منها محسوبًا من بين قيم المتغيرات بحيث يجعل العبارات المثبتة في النظرية عبارات صادقة**"[1].

1 Quine, "Logic and the Reification of Universals,", pp. 102-103.

من الملاحظ أن المعيار الأنطولوجي ينطبق فقط على النظريات المؤولة. ومن المفيد أن نعلم أن هذا المعيار ينطبق فقط عندما تكون النظرية مصاغة بحدود أولية. فإذا كانت عملية التسوير التي تحمل الأعداد مجرد اختزال للتسوير الذي يحمل المجموعات، فإن النظرية ستكون ملتزمة بالمجموعات ولكنها لا تلتزم بالأعداد.

يعتبر معيار الالتزام الأنطولوجي عند كواين اختبارًا أو رؤْزا Test **أو اختيارًا لما تقول النظرية بوجوده وليس لما هو موجود، إنها نسبية أنطولوجية** Ontological relativity**يتحدد فيها ما هو موجود بما تدعي النظرية الصادقة وجوده.**

فالموجود لا يوجد إلا من خلال نظرية تدعي وجوده، وليس لنا بدّ من أن نختار خلفية نظرية للتكلم عن الأنطولوجيا التي تتمتع بها الذوات التي تدعي تلك النظرية وجودها.

يمثل رفض كواين لوجود ذوات مجردة أو معان ذهنية ما يمكن أن تشبهه بالمِصفاة الأولية Prelimenary filter. أما النظريات القائلة بوجود ذوات مجردة، فإنها تعد، في نظر كواين نظريات غير معقولة حقًا، وبالتالي فهي غير صادقة بالقوة. ويبدو أن تفسير كواين لمعياره تفسير صائب. ومع ذلك؛ فهو معيار لا يخلو من وجود تعابير من قبيل "ينبغي" و"يجب" إلخ. وهي عبارات مفهومية.

لقد ادعى كواين أن معياره **معيار ماصدقي**[1]؛ فقد ذهب إلى القول بأن التحديدات التي قعّد بها معياره ظلت تحديدات ماصدقية خالصة. ويمكن

1 Quine, *From a logical point of view*, op. cit., pp. 15 and 107-131.

أن نتساءل بخصوص ادعاء كواين ماصدقية معياره وكذا ماصدقية التحديدات: هل كانت التحديدات التي قدمها كواين مطابقة؟

نورد في البداية اعتراض ليبفسكي Lejevski, C في مقالته "**المنطق والوجود**"- وهي مقالة عميقة اطلع عليها كلٌّ من كواين ولوكاتشيفيتش Lukatsievicz وبوبر وودجر Woodger- ادّعى فيها ليبفسكي أن كواين قد **ربط الوجود بالتسوير ربطًا مطلقًا**؛ ولهذا سيقصي كواين بهذا القيد الذي قيّد به الوجود الثوابت الفارغة، وسيحاول أن يستبدل مكان معياره إجراء آخر يأخذ بالثوابت سواء منها الثوابت الفارغة أو الموضوعية[1].

وأما لامبير Lambert فقد اعتبر- من جهته- أن إضفاء **الطابع الأنطولوجي** Ontologisation على الأسوار من قِبَل كواين لا يخرج عن الرغبة في تقديم **تفسير دلالي خالص**[2].

وقد اعترض كل من شيفلر وتشومسكي (1958) على المعيار الأنطولوجي، وبرهنا على أن الصيغة التي اقترحها كواين غير مقنعة. ويكمن الاعتراض في امتناع فهم الشرط الوارد في العبارة والذي يقضي أن "العبارة غير المحصورة التي تقع تحت السور تصدق على بعض الموضوعات من هذا الصنف ولا تصدق على موضوعات من صنف آخر".

1 Lejevski, Czeslaw,1984, "Logic and Existence", In: Srzednicki, J.TJ. Rikey, V.F. (eds) Lesnievski' s Systems. Nijhoff International Philosophy , Dordrecht. https://link.springer.com/chapter/10.1007/978-94-009-6089-3_3

2 Lambert, (1965), "On logic and Existence", *Notre Dame Journal of Formal Logic*, T. IV, n° 2, April 1965, pp. 135-139.

ويلزم من ذلك أنه يستحيل القول بأن النظرية تقول بوجود موضوعات معينة دون أن يتفطن الواحد منا إلى أن القول بوجود موضوعات من الصنف **صا** بالنسبة للصيغة:

"V موضوعات من الصنف با ..."

يتضمن بذاته التزامًا أنطولوجيًا فلو قرأنا العبارة بهذه الكيفية:

"إذا كانت العبارة غير المحصورة تصدق على موضوع ما من الموضوعات، فإنها تصدق على موضوعات من الصنف **با** ولا تصدق على صنف آخر"، فإننا مضطرون إلى الاعتراف بالنتيجة التالية:

"إن أية نظرية **تلتزم بشيء ما لا وجود له**، تلتزم بالضرورة، **بأي شيء لا وجود له**، وبما أن المقدم في هذه العبارة كاذب فإن الشرط صادق"[1].

يتحدد أقوى اعتراض على معيار الالتزام الأنطولوجي الكوايني في أن هذا **المعيار ذاته ليس ماصدقيًا**، وبالتالي فهو يفشل في **تحقُّقه الذاتي** حتى بمعاييره الأنطولوجية نفسها.

"من بين الأسباب التي حدت بكواين إلى صوْغ معيار الالتزام الأنطولوجي (أن يوجد الموجود هو أن يكون قيمة لمتغير) اعتقاده في قابلية إقصاء الحدود الشخصية. وهذا يدل على أن الالتزام الأنطولوجي لنظرية ما لا يكمن في أسمائها[2]. وعن هذا الاعتقاد نطرح السؤالين التاليين هل كان

---

1 Haack, (1978), *Philosophy of logics*, op. cit., p. 46.

2 يعتبر "كواين" أن الأصناف ليست مفهومية بل هي من قبيل ما يمكن أن بعده مجموعات محددة بعناصر. ولهذا ليست كل المجموعات أصنافا"=

= See: "Natural Kinds" in Quine, 1969, *Ontological Relativity and Other Essays*, New York Columbia University Press.1969, p. 118.

كواين على حق في اعتقاده؟ وهل أصاب عندما ادعى وجوب اقتران الالتزام الأنطولوجي بمتغيرات مقيدة" [1].

لقد بينا الفائدة التي جناها كواين من نظرية الرسوم عند برتراند رسل حيث اعتبر كواين أن إقصاء الحدود الجزئية يتم على مرحلتين:

(أ) أن تقبل الحدود الجزئية أن نستبدل بها الرسوم المحددة، وبالتالي يمكن إقصاء الرسوم المحددة لصالح الأسوار والمتغيرات:

"يمكن لشخص ما أن يضيف في حالة توفر بعض أسماء العلم، على الأقل، رسمًا محددًا يسمي نفس الشيء نحو **"أستاذ أفلاطون"** أي "**سقراط**". واحترازًا من الوقوع في المعضلات التي قد تصادفنا أحيانًا كوجود محمول عادي يصدق بالارتباط مجددًا بالتحديد، على الشخص الذي يسميه الاسم، اقترح كواين **صوغ محمولات اصطناعية**.

وهكذا يتم تعريف **ع** ("سقراط") باعتبارها **(∨س ك (س))** (أي "ال" **س** " الذي يتسقرط"). ويحق لنا أن نعتقد أن المحمول الجديد، **ك**- حسب اقتراح كواين- يعني" سقراط = **ع** "، وبالتالي فإن "... يتسقرط تعني "... يكون هو سقراط". مع ذلك فهذا التعليق ليس بمثابة تعريف للمحمولات الجديدة، وليس ينبغي أن نظن أنه كذلك. إنه مجرد تفسير حدسي" [2].

(ب) وأما المرحلة الثانية فتستدعي نظرية الرسوم التي صاغها رسل والتي يتم توظيفها لإقصاء الرسوم المحددة التي تقوم مقام الحدود الجزئية. وهكذا

1 Haack, (1978), *Philosophy of logics,* P. 46 ff.

2 Haack, (1978), *Philosophy of logics,* P. 46 ff.

يتم إقصاء الرسوم المحددة بدورها لفائدة الأسوار والمتغيرات والهوية نحو: **الـ "س" الذي هو "ك" يكون هو "ل" والذي هو "ع" بحيث يكون هناك بالتحديد "ك" واحدة، وكلما كانت "ك" فإنها تكون هي "ل"**.

وهذا يعني أن العبارات المتضمنة للأسماء مثل "تَجَرَّع سقراط السُّم" يمكن أن نستبدل بها عبارات تتضمن رسمًا لسقراط نحو: "**الـ س الذي يتسقرط تَجَرَّع السُّم**"؛ وبالتالي يمكن، أن ندخل السور ومتغيرات تسوير العبارة على هذا النحو:

"يوجد **س**، **وس** واحد بالتحديد، بحيث أنه **يتسقرط**، وحيث أنه **يتسقرط فإنه تجرع السّم**".

لقد خلص كواين إلى النتيجة التالية ومفادها **أن كلّ ما يمكن التعبير عنه باستعمال الأسماء، يمكن التعبير عنه بلغة لا تتضمن الأسماء**، ولا ينبغي لهذه اللغة أن تسمّي، بل ينبغي أن تشمل متغيرات مسوّرة تضبط الالتزام الأنطولوجي، وتكمن في قاعدته الذهبية في العبارة التالية: "أن يوجد الموجود هي أن يكون قيمة المتغير".

نجد حسب التأويل الموضوعي Objectual interpretation الذي يتبناه كواين، كما بيناه في 2 من هذا الفصل أن "**(∨س (ك (س))**" تعني أن هناك موضوعًا ما **س**، في المجال **مجا**، بحيث يحقق **ك**. والآن فلو أخذنا **مجا** باعتباره مجالًا حيث تُؤوَّل المتغيرات، أي أن الوجود يجب أن يقيد بالسور الذي يقول بوجود شيء ما بحيث إن لهذا الشيء القيمة كذا في المجال **مجا**، فإن امتنع ذلك انعدم الالتزام الأنطولوجي يقول كواين بهذا الصدد:

"لا أفترض **تبعية الوجود للغة**، فما اعتبره ليس متعلقًا بالوضع الأنطولوجي، وإنما **بالالتزامات الأنطولوجية للخطاب** فمسألة الوجود لا تتوقف، عموما، على استعمال شخص ما للغة **بل على ما يصنعه كلام هذا الشخص بالموجود**. يطبق المعيار الأنطولوجي في المقام الأول، على الخطاب وليس يطبق على الإنسان. هناك طريق واحد يمكن أن يتقاسم فيه الإنسان مع الخطاب التزاماته الأنطولوجية وهو، بوضوح، القيام بسلوك أو اتخاذ موقف عابث. إن الجدّة التي تحكي قصة طفلة الرماد Cindrella ليست أكثر التزامًا بقبول وجود "جنّية" و"عربة سحرية" في أنطولوجيتها من أن تقبل أن القصة التي ترويها قصة حقيقية" [1].

ينبغي أن نؤكد من جديد على أن كواين لا يقول بوجود فرق بين "يوجد كذا" أو "توجد مجالات" أو "توجد ذات بحيث" أو "توجد عنقاء" أو "$\exists$ س ك(س)". وهنا تظهر **نزعته الاسمية**. أن توجد فئة لكل الفئات تقتضي تأويل السور بأن ننتقل مثلًا من **Λس ك(س)**، إلى ‹**ك ...**›، بناء على القضية التالية:

تصدق "**$\exists$س ك(س)**" إذا وفقط إذا صدقت " **ك ...**".

يؤول **التأويل الإبدالي** "**$\exists$س ك(س)**" "بـ" يوجد إبدال "**ك ...**" يكون صادقًا. فأسئلة الوجود أصبحت تقوم، مع هذا الصنف من التأويل، على شروط صدق الاستبدالات؛ فعلى سبيل المثال، إذا كانت **ك(س)** لا تصدق إلا إذا وفقط إذا كان **س** حدًّا شخصيًا يصدق على موضوع موجود، فإنه ينبغي أن يكون موضوعًا عامًا بحيث إن هذا الموضوع هو **ك** إذا كانت **$\exists$س ك(س)** عبارة صادقة.

1 Quine, 1953, "Logic and Reification of Universals" in *From a logical Point*… op. cit., p. 104.

يظهر أنه من اللازم أن تحملنا الشروط الصدقية للاستبدال المخصوص إلى الالتزام الأنطولوجي فعندما نكون بصدد العبارة التالية التي تنتمي إلى مبرهنات الحساب المحمولي:

(Vس (ك(س) V ~ ك(س))

والتي تفيد، بواسطة التأويل الموضوعي، أنه يوجد على الأقل موضوع واحد بحيث إنه إما أن يكون **ك** أو ~ **ك**.

تتساءل سوزان هاك مبينة أن العبارات السابقة تعني أن "هناك، على الأقل، موضوعًا واحدًا". وهي عبارة محيِّرة لو فهمنا منها أن **المنطق يقول بأنطولوجيا كائن ما**. فليس كما هو معلوم من شغله، أي المنطق، أن يقول بأن "أي شيء يوجد " أو" شيء ما يوجد..." إلخ: إن **المنطق موضوع محايد** فهل سيجنبنا التأويل الإبدالي الالتزام الأنطولوجي؟".

واضح أن سوزان هاك قد أضفت على المبرهنة السابقة **طابعًا أنطولوجيا خالصًا** في حين أنها مجرد عبارة تدل على مبدأ **الثالث المرفوع ولا تقول عن الوجود** شيئا. ومع الشحنة الأنطولوجية التي قد يجوز أن نشحن بها مبرهنة الحساب المحمولي تلك نقول بوجود وضع إبدالي واحد على الأقل تكون فيه **ك V ~ ك** صادقة.

ويرجع ذلك إلى الاعتبار التالي، وهو يقضي بأنه لو كانت الأسماء التي تدل وحدها على موضوع ما مقبولة باعتبارها إبدالا Substituends ، فإننا سنحصل بالتالي- ومن جهة نظر هذا التأويل الاستبدالي- على موضوع واحد على الأقل. فلو كانت الأسماء التي لا تسمي موضوعات تتمتع بصفة الوجود

والامتداد في العالم المادي كما هو الحال في "العنقاء" مقبولة كإبدالات ممكنة، فإن **الالتزام الأنطولوجي** سيغدو أمرًا نافلًا.

يعتبر كواين أن الكلام عن حدود لا تسمي موضوعات ذات وجود مادي كالعنقاء إن هو إلا ضرب من ضروب الالتزام بأن ذواتًا من هذا القبيل لا وجود لها. فالعبارة "العنقاء تخطف الغول" لا تعني أكثر من أن العنقاء والغول لا يتمتعان كلاهما بالوجود [1]..

لقد أخذ كارناب في مقالته "**التجريبية والدلاليات والأنطولوجيا**" برأي كواين الذي يقضي بأن **استعمال المتغيرات المقيدة هو الذي يدل على فئة معينة من الذوات التي تعتبر مظهرًا من مظاهر استعمالنا اللغوي الذي يحشرنا في التزامات أنطولوجية**[2]. ومع ذلك فقد ألحّ كارناب، على ضرورة التفريق، كلما تعلق الأمر بمسألة أنطولوجية، بين ضربين من الأسئلة: (أ) **الأسئلة الداخلية** و(ب) **الأسئلة الخارجية** وذلك:

"إذا رغب شخص ما في التكلم بلغته عن نوع جديد من الذوات، فيجب أن يُدخل طرقًا أو أساليب جديدة في الكلام وقواعد تتحكم في هذه الأساليب التعبيرية؛ وهذا الأمر يعد في المقام الأول بمثابة مدخل لصنف جديد من المتغيرات. وتسمى هذه العملية عملية بناء لغة لهذا الصنف الجديد من الذوات. والآن يمكن أن نطرح تساؤلات عن الوجود من داخل اللغة، وتكون هذه أسئلة داخلية غير أنه من الممكن أن نطرح تساؤلات تتعلق بوجود فئة كلِّية تشمل كل

1 Quine, *From a Logical Point of View*, op. cit., p. 103.

2 Carnap, (1956), "Empiricism, Senantics and ontology" in *Meaning and Necessity*, op. cit.

الذوات الجديدة باستقلال عن اللغة وتلك هي الأسئلة الخارجية"[1].

وتعود أهمية هذا التعبير، حسب لينسكي Linsky، إلى أن الأسئلة الداخلية ستكون ذات معنى، وبالتالي صحيحة ومتّسقة؛ وذلك لأن السؤال الداخلي يوجهه منهج محدّد ومعروف يمكِّننا من تقديم الحلّ، بينما لا تمكننا الأسئلة الخارجية من الحصول على أيِّ معنى ذهني واضح على الإطلاق:

"لنأخذ على سبيل المثال لغة مبنية لنسق الأعداد، ولنعتبر أننا نتوفر داخل اللغة على الحدّ الكلي "**عدد**" يتعلق بهذه الموضوعات التي نتخذها كقيم لمُتغَيِّراتنا؛ ولنعتبر، في الأخير، أن العبارة توجد "**2 عدد**" عبارة تحليلية تبعًا للغة التي نتبناها. وهكذا ستكون العبارة "توجد أعداد" إذن، عبارة تحليلية بما أنها تصدر منطقيًا عن "**2 عدد**". غير أننا بمجرد أن نتساءل **هل توجد أعداد، فإننا لا نعني السؤال الداخلي بل إننا نكون قد طرحنا سؤالًا سابقًا حتى على قبولنا البنية اللغوية**"[2].

لقد بينا أن كواين اعترض على هذا التصور معتبرًا أن التفريق بين الأسئلة الداخلية والأسئلة الخارجية تفريق لاغٍ ولا فائدة منه لأنه يقوم على وضع خطٍّ فاصل بين الفلسفة والعلم. ومعلوم أن كواين لا يأخذ بهذا التفريق أيضًا بحكم كون الأسئلة كلّها تظل خارجية **لأن الموضوعات التي نتكلم عنها تحتاج إلى خلفية نظرية**.

1 Linsky, (1952), *Semantics and the philosophy of language*, introd. op. cit., p. 5.

2 Ibidem.

ولا يتعلق الأمر بتعدد الأنطولوجيات، بل يتعلق بكوننا لا نستطيع التكلم عن الأنطولوجيا إلا في إطار أنطولوجيا أخرى نختارها بمحض المواضعة، تلك هي **النسبية الأنطولوجية وهي تنسحب على كل طرق تكلمنا عن الموجود.**

تسلط مقالة "**النسبية الأنطولوجية**" [1] أضواء على كتاب كواين **الكلمة والشيء**[2]. فالموضوعات التي نتكلم عنها ليست نتيجة الطبيعة الموجودة خارجنا. إنها تنبني انطلاقًا مما تعرضه الحواس عن طريق صيغ لغوية. وقد تبدو هذه الدعوى غريبة بما أننا لا نصنع بكلمتنا موضوعًا طبيعيًا: فكلمة "كلب" لا تنبح!!!

لقد اعتبر المثاليون أن الموضوعات التي نتكلم عنها وندركها تتضمن عنصرًا ذهنيًا أي أن الفكر يساهم فيها. إن اتصالنا بالعالم الخارجي يتم- كما قال كانط- عن طريق **الحساسية** والفهم أي أنه ينطلق من **التجربة**. غير أن الحساسية تأخذ في الانكماش والتواري، وتفقد مفعولها **بمجرد أن نكتسب اللغة**. وهذا يسري على كل من بيركلي وهيوم اللذين حصرا اتصالنا بالعالم **في الإدراك**.

وكيفما كان الحال، فإن **الأنطولوجيا تغدو مرتبطة باللغة أكثر من ارتباطها بالعالم المادي سواء افترضنا أن صلتنا بهذا العالم تتم عن طريق التجربة أو الإدراك أو الحدس أو أي شيء آخر.**

1 Quine, (1969), *Ontological Relativity and other essays*. Op. cit., p. 27 ff.

2 Quine, *Word and Object*, The Massachuusetts Institut of Technology, 1960.

2.3. القيمة الفلسفية للنسبية الأنطولوجية:

تتفق دعوى النسبية الأنطولوجية مع تطور الرياضيات. فلم يعد ثمّة وجود لنظام منطقي واحد ووحيد بين النظريات، ولم يعد ثمّة وجود لبداية أصلية أو أساس مطلق، فقد يتمُّ تمثيل نظرية ما في نظريات أخرى؛ لذلك لم يعد من الضروري، إذن، أن نثبت أن بعض النظريات تصلح كإطار أو خلفية ضروريين لبناء نظريات أخرى بعد أن فشل ردّ الرياضيات إلى نظرية المجموعات واختزال نظرية المجموعات في المنطق؟

لقد تبين أن إمكانية القيام بردود أنطولوجية وتفسير نظرية ما داخل (نموذج) نظرية أخرى لا يلزم منه بالضرورة اختزال أنطولوجيا في أنطولوجيا أخرى. ومع ذلك، فلا معنى لتحديد موضوعات نظرية ما لأن موضوعات هذه النظرية لا تحدد إلا باعتماد خلفية نظرية أخرى أي باعتماد نظرية فوقية Metatheory.

" لا يكون لتحديد مجال نظرية ما معنى إلا إذا استندنا إلى نظرية أخرى تكون بمثابة خلفية نظرية لها"[1].

تنتهي مقالة كواين **النسبية الأنطولوجية** إلى تناول **الاختزال والأنطولوجيا**. ومع ذلك، فقد ظل كواين حريصًا على اعتبار أن الموضوعات التي تحصل، بامتياز، على هذه الصفة هي **الأجسام الصلبة المادية. فحتى ولو قلنا بامتناع تمحيص الإحالة** inscrutability of reference، **فإن هذا الامتناع لا يدل، مع ذلك، على انعدام وجود موضوع خارجي يتعلق به كلامنا**.

1 Quine, *Ontological relativity*, op. cit., p. 68.

هناك منطق ضمني في اللغة نخضع له في إعادة بناء الموضوعات، ولهذا لا يأخذ كواين بأساس نفساني لامتناع تمحيص الإحالة وهو يربطه بالنسبية الأنطولوجية؛ فقد نسند إحالات متباينة لنفس اللفظ كما قد نتلقى إجابات متباينة عن السؤال "هل هذا عدد؟" فللصدق والكذب وقائع تكون بمثابة **معايير**.

فلنبين ما المقصود من امتناع تمحيص الإحالة الذي توسعنا فيه في الجزء الأول من هذا العمل[1]: هبْ أن شخصًا ما من قوم معزولين عن أي اتصال ثقافي تلفّظ بالكلمة: "**غافاغاي**" أو هبْ أننا رغبنا أن نضع لما تلفّظ به مقابلًا في لغتنا. إن الوقائع التي سنرجع إليها غير محدّدة.

فليست مشكلة **الإحالة** متعلقة بوقائع محدّدة؛ فلو أن الشخص من القوم تلفظ بـ"**غافاغاي**" وهو يشير إلى **أرنب مرّيجري قُبالته**، فلسنا على بيِّنة من أنه يشير إلى الأرنب بعينه أو إلى مقطع منه أو إلى لونه، ولسنا ندري أن **غا فا غاي** بهذا التقطيع تفيد "**أرنب أبيض يجري**" إذا كان الشخص يعني بـ**غا** 'أرنب'، وبـ'**فا**' 'أبيض' وبـ'**غاي**' يجري... إلخ؛.

يمكن أن نعتبر أن النتيجة التي انتهى إليها كواين، والتي تتحدد في امتناع تمحيص الإحالة، تسوّغ له أن يبني عليها دعوى **النسبية الأنطولوجية**، كما أن دعوى امتناع تمحيص الإحالة تفسر نفور كواين من أن يحشر نفسه **في السجال العتيق بين الاسمية والواقعية**. فإذا كانت كل إحالة غير ثابتة يقينًا، **فيلزم أن نترك الاسمية والواقعية جانبًا**. لذلك سنجده يقتنع **بواقعية نسبية** مما جعله يثور على كل من النزعة الذهنية والتجريبية الساذجة.

1 مشروح، إبراهيم، **كواين: ما بعد الفلسفة التحليلية، الدلاليات وفلسفة اللغة**، الفصل السادس، ص، 267 ومابعدها، ط2، 2024.

وقد نعت كواين كثيرٌ من دارسيه بكونه يمثل النزعة الاسمية. ولا يفوتنا هنا أن نتحفظ بخصوص هذا الحكم فقد استلهم "كواين" التطورات الرياضية والمنطقية، واستفاد من محاولات الردود. وهكذا فالمسلمات والأوليات لا تحدد في الرياضيات طبيعة الموضوعات وحتى مفهوم المجموعة أضحى متوقفًا على المسلمات التي نضعها لها [1].

ولهذا يرى كواين أن صاحب النزعة الاسمية الملتزم برفضه لما هو مجرد وفوق متناه، يكون مضطرًا لأن يحرم نفسه من الرياضيات خصوصًا منها الأعداد غير الحقيقة والمجموعات غير المعدودة. **فلا ينبغي لمعتنق النزعة الاسمية**- يضيف كواين- **أن يتحرّج من الفيتاغورية**" !

لقد أصبحت دعوى **النسبية الأنطولوجية** دعوى أساسية داخل فكر كواين، فقد مهّد لها بكتابات أبرزها مقالته "**التكلم عن الموضوعات**" [2] 1957. ومن خلال ما سبق، يمكن أن نلخص المواقف الأنطولوجية لكواين في الخطاطة التالية التي وضعتها سوزان هاك:

1 Davidson, and Hintikka, (1969), *Words and Objections*, op. cit., p. 14.

2 Quine, (1969), "Speaking of objects" in *Ontological Relativity, and Other Essays*, Cambridge University Press, op.cit..p. 93.

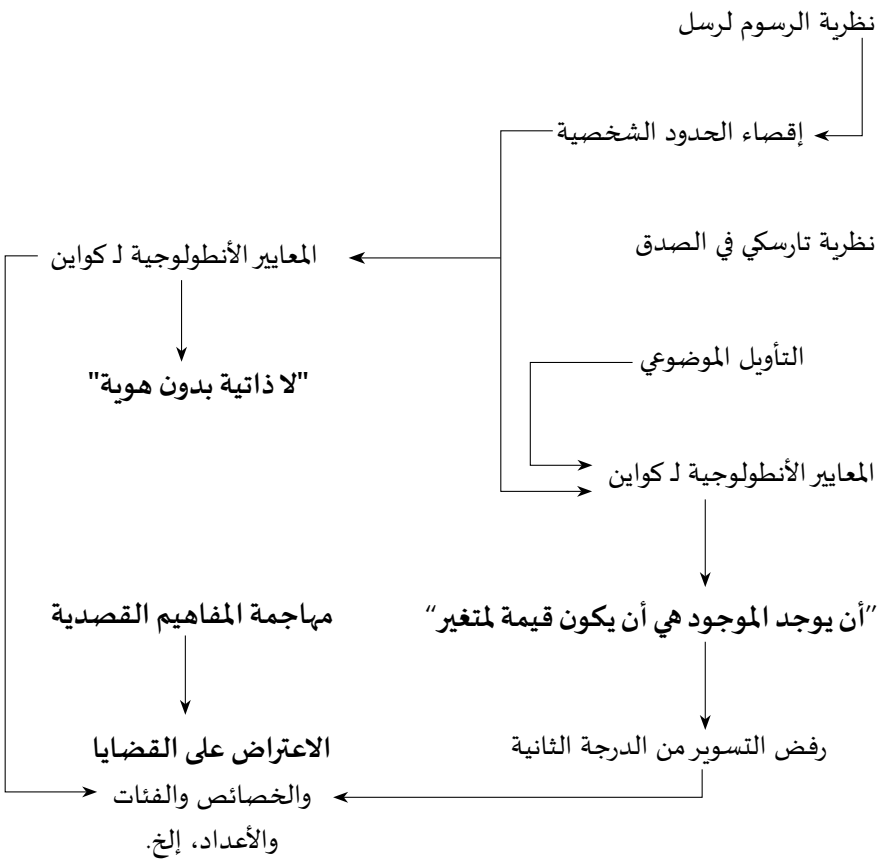

الخطاطة (1):

سوزان هاك حول النسبية الأنطولوجية

والالتزام الأنطولوجي

نستنتج أن كواين قد أخذ من نظرية الرسوم إقصاء الحدود الشخصية، وصاغ معياره الأنطولوجي متبنيا التأويل الموضوعي لدى تارسكي، ومحافظًا على رفضه للذوات المجردة والمفاهيم القصدية. وهكذا رسخت **دعوى النسبية الأنطولوجية** في القول بأن استعمال اللغة لا يقتضي سوى اللغة. وقد لعبت دعوى امتناع تمحيص الإحالة، و**دعوى امتناع تحدد الترجمة** على الخصوص دورًا كبيرًا في تثبيت معظم دعاوى كواين[1].

وخلاصة القول، فإن النسبية الأنطولوجية دعوى تستقطب كافة الدعاوى الدلالية الكواينية الأخرى، ويظهر فيها موقف كواين من المفاهيم المجردة واضحًا. فهو يستنفر العُدَّة المنطقية لكي يدلل بها على أن الوجود هو القيمة الصدقية للمتغير، وبالتالي فلا ذاتية بدون هوية ليستبعد كل نزعة ميالة إلى ادعاء وجود فلسفة حول الوجود دون أن تركن إلى هذا الوجود.

والآن، فلنبحث علاقة النسبية الأنطولوجية بفلسفة العلم، وبالتالي بالإيبيستيمولوجيا المطبوعة؛ فليس ثمة ما يفترض عدم وجود علاقة بين الإيبيستيمولوجيا المطبوعة والنسبية الأنطولوجية، فهذا افتراض مردود؛ وذلك لأنه إذا كانت الإبيستيمولوجيا تُعنى- من بين ما تعنى به- بالأساس الذي يقوم عليه العلم بما في ذلك أسس الرياضيات؛ فإن دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية ستحضر، وبالتالي سنجد أن أسس العلم تتعلق بالأنطولوجيا.

1 Gregory, R. Mulhauser, 1998, *Mind and Matter,* Kluver Acade - Publishers, p. 71.

لقد أشار كواين إلى أننا مع أعمال غودل Gödel صرنا نفتقد كيفية تأسيس اليقين الرياضي نفسه: "لقد أضحينا نعلم منذ أعمال غودل أن عدم اتساق نسق ما يطال حتى الرياضيات حتى ولو نبذنا البداهة. يبدو من الناحية الفلسفية والرياضية أن اختزال أسس الرياضيات أمر مغرٍ، لكنه لا يقوم بما يرغب الإيبيستيمولوجي أن يقوم به هذا الاختزال: إنه لا يدلّنا على أساس المعرفة الرياضية، ولا يبيّن لنا كيف يكون اليقين الرياضي ممكنًا"[1].

وبما أن أساس العلم الذي تتشوف إليه الإيبيستيمولوجيا، ويرومه فلاسفة العلم **لا يُعطى إلا بخلفية نسبية أوشكية، فإن الواقعية تظل بعيدة المنال**؛ ولذلك، فإن النسبية الأنطولوجية تأخذ بناصية إيبستيمولوجيا كواين وإن في صورتها الطبيعانية.

فإذا كان النوع البشري يطور نظرياته العلمية انطلاقًا من مدخلاته الحسية، فإنه حين يصوغها في النظرية، فإنما يصوغها في **إطار لغوي** مأخوذ بامتناع تمحيص الإحالة، وبنسبية تتجلى فيما تلتزم به النظرية العلمية من الأشياء أو الموضوعات التي تُنظِّر لها. وههنا تطرح إشكالية الواقعية والنسبية والتعددية.

لنأخذ ما عرف بجمل رامسي Ramsey's sentences التي رام فيها تقديم ترجمة منطقية للنظرية العلمية تُستبدل فيها المتغيرات المسورة تسويرًا وجوديًا بالحدود النظرية غير العيانية unobservable؛ وهي عبارة عن إعادة بناء النظرية بإعمال التنسيق المنطقي أو الترجمة المنطقية من أجل تجنب

1 Quine, "Epistemology naturalized", In *Ontological Relativity*, op. cit. p. 70.

الموضوعات غير العيانية؛ وبهذا ننتقل بواسطة جمل رامسي من **ناغيرعيّانية** إلى **ناعيّانية** وقد انصرفت قصدية رامسي إلى وضع خط فاصل بين العلم والميتافيزيقا. ولذلك فرق بين الجمل النظرية والجمل العيانية كما صنع كارناب.

هناك ثلاث خطوات نتبعها مع رامسي للقيام بهذه الترجمة المنطقية:

- **الخطوة الأولى**: النظرية التجريبية التي تعدُّ صادقة وفق القواعد:

(ناقا (ق1،.....، قن

نأخذ النظرية غير العيانية **ناغيرعيانية** التي تشمل الحدود غير المرئية التي تعبرعن ذوات مجردة غيرعيّانية، لنحصل على النظرية العيانية **ناعيانية** ومكونات **ناغيرعيانية** هي المتغيرات غير المقيدة:

س1، س2،.....سن؛

- **الخطوة الثانية**: التعبير بالأسوار الوجودية عن الذوات المجردة غير العيانية:

سنV.....،س2 V ،س1V

- **الخطوة الثالثة:** ونحصل فيها على نظرية تحمل الموضوعات غير المقيدة لتجعلها متغيرات مقيدة في **نامرئية** لنحصل في الأخير على اختفاء الذوات المجردة بحيث سيتبدى أن ما سيتبقى إما القواعد أو الموضوعات الفيزيقية التي تتكلم عنها النظرية العلمية.

لقد شاطر كواين رامسي في الاشتغال بالفلسفة النظرية والمنطق،

وكلاهما أخذ - كل منهما على شاكلته - بالعدة المنطقية والرياضية للحدّ من المسبقات الفلسفية والمطلقات الميتافيزيقية؛ ويبقى أن بينهما من التقارب الكثير؛ غير أن كواين ينأى عنه بدعواه الرئيسة: طبيعانية المعرفة أو الإيبيستيمولوجيا المطبوعة.

ونرى أن رامسي أوشك أن يقول بما سيقول به كواين بعده حين حصر الوجود في القيمة التي تعطى للمتغير، وما تلتزم به النظرية أنطولوجيا.

الفصل الثالث

دعوى امتناع تعدُّد الترجمة

الفصـل الثالـث

دعوى امتناع تحدُّد الترجمة

تعتبر **دعوى امتناع تحدد الترجمة** من أشهر دعاوى كواين الفلسفية. فقد استرعت انتباه المناطقة واللسانيين وفلاسفة اللغة وفلاسفة العلم على حدّ سواء. فما أثارته من مناقشات وردود، وما دخلت فيه من تعارضات شديدة مع العقلانيين المعاصرين لكونها عُنِيت بفحص علاقة العقل بالمعنى وكذا ما جعل منها دعوى غايرت به دعوى التجربيين القاضية بوجود تطابق بين لغتا والعالم؛ كل ذلك جعل منها دعوى رئيسة في فلسفة كواين.

ولما كانت الدعوى تصدر كنتيجة طبيعية عن مواقف فيلسوف هارفارد في مجال الدلالة وفلسفة المنطق، بل وحتى في منظوره لفلسفة العلم، ولما كانت تنبع من هجومه على معتقدي النزعة التجريبية القاضيين بالفصل بين القضايا التحليلية والقضايا التركيبية، وبإمكانية ردّ الرياضيات إلى نظرية المجموعات، ونظرية المجموعات إلى المنطق، فإن **دعوى امتناع تحدد الترجمة** تقترن بدعاوى كواين الأخرى وعلى رأسها **النسبية الأنطولوجية** ودعوى الشمولية الدلالية[1]. وهي دعاوى سبق وأن أوضحنا أنها تقوم على أساس بحوث كواين في مجالي المعنى والإحالة وفلسفة المنطق.

1 Le Pore, Ernest (ed.), *Truth and Interpretation*, Basil Blackwell, Oxford & New York, 1989.

تتعلق دعوى امتناع تحدد الترجمة، إلى حدٍّ بعيد، **بالمعرفة الإنسانية** وبسُبُل حصولها لكونها تنظر في أسسها. لقد جعل كواين **مسألة المعرفة تفحص من خلال الترجمة** بعد أن محّصها غيره من الفلاسفة إما من طريق العقل (ديكارت وكانط) أو التجربة (هيوم ولوك...) أو الإدراك (بيركلي)...

تتضافر دعاوى كواين وتقوم سندًا لبعضها البعض نحو دعوى **امتناع تحديد النظرية العلمية** التي جعلته يعتنق التفسير الطبيعي والنزعة الفيزيائية بدل التفسير النفساني (ضد هسرل Husserl وبرنطانو) ويهجر المنطلقات العقلية القبلية أو الأفكار الفطرية innate ideas (ضد تشومسكي)[1].

لقد ذهب كواين مذهبًا رأى فيه أن **نظرية الصدق إنما تكون بملاحظة السلوك الإنساني العمومي**، فلا مجال للأخذ بنفسانيات المعرفة. فما هي دعوى امتناع تحدد الترجمة؟ وما هي أسسها الدلالية؟ وما هي خلفيتها الفلسفية ونتائجها المعرفية؟

1. دعوى امتناع تحدد الترجمة: تحديدات أولية

هب أننا نحاول في مجال اللسانيات أن نضع **كراسات** manuals ننقل فيها إلى لغتنا العربية لغة قوم آخرين نجهل لغتهم جهلًا تامًا، بحيث لم يسبق أن حصل بيننا وبينهم أي احتكاك ثقافي، أو تواصل لغوي. يجب أن نتوفر على كراسات تتيح لنا الحصول على عبارات متكافئة مع عبارات اللغة

1 تشومسكي، نعام، **اللغة والعقل** (ترجمة إبراهيم مشروح ومصطفى خلال)، دار تينمل، مراكش، 1991.

التي ننقلها من تلفُّظ أفراد هذه الجماعة أو القوم[1].

قدم كيرك Kirk [2] جملة من التحديدات التي وردت في سياقات مختلفة ومتنوعة من كتابات كواين نود أن نذكرها هنا مع شيء من التوسع. وقد اخترنا أن نرتّبها وفق لحظات فكرية تبلورت فيها دعوى كواين القاضية بامتناع تحدد الترجمة. وسنبين- فضلًا عن ذلك- في خضم هذه التحديدات، كيف تترابط دعوى كواين هاته مع دعاواه الأخرى التي تناولناها في هذا البحث.

1.1. يتحدّد فهمنا العادي **لمدلول تكافؤ المعنى** gninaem fo ssenemas في اللغة الطبيعية في أنه عندما يُقدِّم إلينا مترجمان ترجمتين متنافسين ومختلفين لنفس المعنى، فإننا سنلاحظ أن كل ترجمة تسعى إلى مطابقة المعنى المطلوب نقله قدر الإمكان، وكذلك الحال بالنسبة للترجمة المنافسة؛ فما نخلص إليه هو أن كل ترجمة تطابق المعنى المنقول، غير أنها لا تتطابق فيما بينها. وهكذا نحصل على كراستين متباينتين تضم كل واحدة منهما ترجمة لعبارة تكون وفية للوقائع غير متطابقة فيما بينها.

وهي صيغة لدعوى امتناع **تحدد الترجمة** أقرب إلى صيغة **دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية**. فعلى سبيل المثال، نجد أن نظريتين علميتين **نا1** و**نا2** تطابقان الواقع الفيزيقي دون أن تتطابقا فيما بينهما. ومن الملاحظ أن كواين يوظف ههنا تصوره الدلالي القاضي بامتناع تحديد المعنى وامتناع الترادف أو تكافؤ المعنى.

1 Hookways, (1988), op. cit., p. 127.

2 Kirk, Robert, *Translation Determined*, Oxford University Press, 1986.

2.1. إن اللساني الذي يترجم (ترجمة جذرية radical translation) لغة قوم لم يسبق أن اتصلوا بأية لغة لقوم آخرين يضع في كراسته ما ينقله من كلام القوم في علاقته بالوقائع. ويظهر امتناع التحدد في أنه لو أقدم مترجمون آخرون على نفس الشيء لكانت النتيجة هي حصولنا على كراسات متنافسة فيما بينها مطابقة **نسبيًا** للوقائع اللسانية المنقولة.

يدل هذا التحديد على توظيف كواين لدعوى **امتناع تمحيص الإحالة**. فلو أن رجلًا من القوم رأى أرنبا يجري فتلفظ بـ "**غافاغاي**"، فإن سلوكه الكلامي هذا، سيجعل المترجمين عاجزين عن نقله إلى لغتهم إلا إذا توسط **المثير** (وهو هنا "**الأرنب الواقعي**" الذي مرّ أمام الرجل). غير أن المترجمين لا يحددون ولا يتمكنون من ضبط و**تقطيع** ما تلفظ به البدائي؛ فلا أحد يعلم ما إذا كانت "**غافاغاي**" لفظة واحدة أو جملة قصيرة أم طويلة في لسان القوم أو ... إلخ.

إن ما يسعف المترجم هو ما يربطه بما تلفظ به رجل من بين القوم. وفي هذه الحالة يسجل على كراسته "**غافاغاي** = **أرنب**". وقد يكتب غيره "**غافاغاي** = **أرنب يجري**" وغيره "**غافاغاي** = **أرنب أسود**"... إلخ إنها دعوى **امتناع تمحيص الإحالة تتجسد في امتناع تحدُّد الترجمة**.

وأما تقطيع ما تلفّظ به الرجل فيطرح نفس الصعوبة. فهل تعني "**غا** = هذا" و"**فا** = أرنب" و"**غاي** = يجري"؟ إن الجواب هو **امتناع تحدد الترجمة لامتناع تمحيص الإحالة** فهناك صور إحالية scheme of reference عديدة لمسمى واحد. وتلك هي **النسبية الإحالية**.

1 . 3 . ليست علاقات **تكافؤ معنى العبارات**، عموما، عبارة عن وقائع مادية حتى ولو تعلق الأمر بترجمات دقيقة. فحينما نقارن بين كراستين لا يكون أمامنا سوى ما وضعه المترجمان (صاحبا الكراستين) من مقابلات لملفوظات القوم التي نقلها كلٌّ منهما على حدة إلى لسانه. فلسنا نجد أية **وقائع مادية** لكي نفاضل بين الكراستين من حيث مدى نجاحهما في نقل ما تلفظ به الرجل بلسان قومه. إنها **دعوى انعدام حقيقة الوقائع** non factuality thesis.

4.1. لا تحصل قضايا ترادف الجمل أو العبارات على معنى إلا تبعًا لصورة معينة للترجمة scheme translation؛ إذ بناء على المصادرات و**الفرضيات التحليلية** (انظر الفقرة 2 الموالية)، يقوم المترجم بنقل ملفوظات الرجل؛ ومن هنا، فإن **صورة الترجمة تتغير بحسب الفرضيات التحليلية الضمنية لكل مترجم على حدة**.

وتسند هذه الدعوى دعوى جزئية مفادها أن **الترجمة تظل نسبية** بحسب منطلقات وفرضيات لا تكون مشتركة بين المترجمين- وهذا شبيه نوعًا ما بما ذهب إليه كواين في أطروحته حول نسبية الأنطولوجيا- ويظهر أن تنوع صيغ التعبير عن دعوى امتناع تحدد الترجمة تقوم دليلًا على صحتها. أليست صعوبة تحديد ما صرح به كواين بخصوص دعواه هاته شاهدًا على دقة ما ذهب إليه.

يتعلق الأمر، إذن، بمعرفة **امتناع التطابق** incompatibility بين كراسات الترجمة التي تقابل كل واحدة منها على حدة باقي الكراسات التي تنقل نفس السلوك الكلامي الحالي الذي قام به رجل من القوم actual linguistic behavior، فكل الكراسات تطابق **واقعة لسانية** بعينها، غير أنها لا تتطابق فيما بينها، ولا تتحدد إلا في **شمولية وكلية الواقعة اللسانية**.

وهذا يذكرنا بالأطروحة الكواينية في الدلاليات التي قال فيها **بالشمولية الدلالية**، وبأطروحته في نظرية التحقق التي جاء فيها **بدعوى شمولية التحقق**، كما يذكرنا هذا السياق بامتناع تحدد النظرية العلمية الذي يقضي بأن **نا1** تطابق مجموعة من الوقائع و**نا2** تطابق أيضًا نفس المجموعة من الوقائع، غير أنهما، أي **نا1** و**نا2** لا تتطابقان فيما بينهما.

والآن بإمكاننا أن نبين كيف تتداخل دعوى **امتناع تحدد الترجمة بامتناع تحديد النظرية العلمية**؛ فلنتأمل هذا المثال:

ب- هب أن فيزيائيا فرنسيا لاحظ في مجال الفيزياء الذرية 'الفوتون'، فصاغ العبارة التالية:

1 - Le photon n'a pas de masse;

وأن اللساني المتصل بالطبيعيات سيقبل العبارة التالية كترجمة لعبارة الفرنسي:

2 - Photon has no mass;

وكذلك اللساني العربي:

3- ليست للفوتون كتلة.

يظل هذا النقل الجزئي قاصرًا وممتنعًا عن التحديد فقد قبلت (1) في سياق نظرية فيزيائية. وهي تتعلق بوقائع محددة تقرر بشأنها في عبارات والمترجم لا يسعه إلا أن ينظر إلى العبارة التي يود نقلها في شمولية تضعها في سياق النظرية الأصلية التي قررتها.

ولهذا نجد أن دعوى امتناع تحدد الترجمة قد تغدو قوية ضد دعاة الموضوعية في الدلاليات؛ فقد أفضت هذه الدعوى إلى التصريح بامتناع **وجود حقيقة الوقائع المادية** يستند إليها المترجم الناقل للغة قوم آخرين إلى لسان قومه (امتناع تمحيص الإحالة، وامتناع تحدد الترجمة). فلو افترضنا وجود مترجمين يقدم كل واجد منهما كراسته، فإننا لن نجد وقائع نستند إليها في بيان أي كراسة منهما أصح أو أقرب إلى نقل ملفوظات القوم.

ولهذا، سيقول كواين- كما أشرنا إليه أعلاه- بدعوى امتناع وجود **فلسفة أولى** تشكل خلفية نظرية واحدة ووحيدة يمكن اتخاذها كأساس بين نظريتين علميتين تتعلقان بنفس الوقائع التجريبية. ومن الملاحظ أن دعوى امتناع تحدد الترجمة تقترن أيما اقتران بالنسبة الأنطولوجية.

وللتدليل على هذه الحقيقة، نورد نصًا لكواين يبين فيه امتناع التواصل بين فيلسوفين يتبنيان أنطولوجيتين مختلفتين:

"هب أن مناقشة دارت بين فيلسوفين **س** وء. وذهب ء - لأسباب جد مشروعة فرضها عليه **مبدأ الاقتصاد** Priciple of Parsimony إلى الاعتراف بأنطولوجيا أضيق من أنطولوجيا **س**. فإذا كان الاقتصاد المشترك في المناقشة يقتضي ألا نتكلم أو نسمي بكيفية دالة، إلا إذا كنا نفترض وجود الموضوع الذي نتكلم عنه، فإن **س** سيتوفر على لغة أقوى من لغة ء، ولن يستطيع هذا الأخير أن يعترض عليه، بل إنه لن يتمكن حتى من ذكر الفرق الحاصل بينهما دون أن يقع في تناقض.

وهب أن **س** يقبل، بالفعل، وجود مجموعات أو أرواح، فإن كان الأمر

كذلك، فإن ء لن يتمكن من أن يعترض عليه بقوله بأن المجموعات أو الأرواح لا وجود لها" دون أن يستدرك س الذي يستنتج من النفي ذاته الذي قال به ء أنه يجب أن توجد المجموعات والأرواح على نحو ما حتى يتأتى له (أي لـ ء) أن يتكلم عنها"[1].

إن الأنطولوجيا التي تأخذ بها لغة س تختلف عن الأنطولوجيا التي تأخذ بها لغة ء؛ وبالتالي، فإن صورة الترجمة ستتباين؛ فلو أن س وء أقبلا على ترجمة لغة قوم فإن الترجمة ستتأثر صورتها بالخلفية الأنطولوجية لكل منهما.

2. الفرضيـات التحليليـة:

لو تشبثنا بدعوى امتناع التحدد بكيفية جذرية، لأفضى بنا ذلك إلى القول بدعوى التواكل الدلالي الكلّي interdépendance sémantique universelle أي أن فهم أية عبارة مهما بلغت مبلغًا من البساطة يتوقف على فهم كل العبارات؛ وبالتالي فسنأخذ بالمذهب المعرفي الذي يعطي للدلالة طابعًا مطلقًا على نحو ما جاء به هيغل Hegel وبرادلي Bradeley : **ينبغي أن نعرف كل شيء لكي نعرف شيئًا ما معرفة جيدة**[2].

لا يأخذ كواين بهذه الدعوى بل يقول بوجود فرضيات تحليلية:

"يقوم اللساني بتقطيع التعابير التي يسمعها بردها إلى أجزاء قصيرة بما فيه الكفاية، ثم يعمد إلى تسجيل لائحة من الكلمات التي يستعملها أفراد القوم

1 Quine, 1960, *word and object*, op. cit., p. 229.

2 Gochet ,1979 ,*Quine en perspective*, op. cit., p. 79.

الذين ينقل كلامهم إلى لسان قومه؛ ونتيجة لذلك، يضع، بكيفية افتراضية، بعض تلك الملفوظات في تطابق مع كلمات ومقاطع جمل لسان قومه. وهذه الجداول التي ترصد التطابق هي ما أُطلق عليه اسم **الفرضيات التحليلية**"[1].

يكمن دور الفرضيات التحليلية في ضبط وتحديد الجمل الثابتة أو الأبدية eternal sentence وصوغ عبارات مقابلة من طرف المترجم لما يتلفظ به أفراد القوم. غير أن فرضيات تحليلية منافسة hypothèses analytiques rivales أي: الفرضيات التي قد تضع مقابلات أخرى لنفس الملفوظات قد تعتمد، هي الأخرى، على رصد علاقة الملفوظات بالسلوكات الكلامية لأفراد القوم. ففي هذه الحالة نقول إن الترجمة تمتنع عن التحدد.

إن تلفظ رجل من القوم بـ "**غافاغاي**" قد يجعل المترجم (أ) ينقلها، بناء على سلوك المتلفظ بها إزاء **معنى مثير** stimulus meaning أو **معنى إثاري**، إلى لسان قومه بتقطيعها على هذا النحو "**غا**" = هذا، و"**فا**" = أرنب "**غاي**" = يجري، لتصير العبارة كاملة هي: "غافاغاي" = "هذا أرنب يجري". غير أن المترجم (ب) قد يضع مقابل "غافاغاي" الجملة الظرفية occasion sentence "أرنب أسود" إذا كان ما يشير إليه الرجل هو بالفعل أرنب أسود اللون.

لقد احترز كواين من إمكانية تسلُّل مفاهيم نظرية المعنى والتصورات الذهنية إلى دعواه. لذلك **ربط تحديداته بقناعاته السلوكية**. وهكذا، فلكي يتوصل المترجم إلى ضبط ما أراد أن يبلغه الرجل من القوم حين تلفظ بـ "**غافاغاي**" كجملة ظرفية قد تدل، في لسانه على "هذا أرنب"، ولكي يعرف ما

1 Quine (1960), *Word and Object*, op. cit., p. 68.

إذا كان يقصد بـ "أرنب" موضوعًا دائمًا أم موضوعًا عارضًا لخاصية "الأرنبية" rabithood/ léporité فيجب عليه أن يعمد إلى مساءلة الرجل: "هل هذا هو نفس الأرنب"؟ "هل نحن أمام أرنب واحد أم أكثر"؟

ولكي يقتدر المترجم على طرح هذه الأسئلة، يجب عليه أن يكون قد تزوّد بمعرفة صيغ تعبير تفيد "نفس الشيء" و"مختلفان" ... إلخ؛. ولذلك يحتاج هذا المترجم إلى **الفرضيات التحليلية** التي تمكنه من تقطيع الجمل وعزل مكوناتها.

وعلى هذا الأساس، فإن الحاجة الأكيدة للفرضيات التحليلية واختلافها من مترجم لآخر يقومان دليلًا على امتناع تحدد الترجمة. يوضح كواين المسألة كما يلي:

"إذا أخذنا بواسطة فرضية تحليلية: "**هما نفس الشيء**" كترجمة لصيغة في الكلام عند القوم، فإننا سنتمكن، بناء على هذه القاعدة، من مساءلة مُخبرنا من أجل معرفة ما إذا كان الأرنب الذي أشاهده في ظرف ما هو نفسه الذي شوهد في ظروف أخرى.

وهكذا نستنتج، بنفس الكيفية، أن الـ "**غافاغاي**" (بصيغة الجمع) أرانب، وليست مراحل من الأرنب أو مقاطع. غير أننا لو أخذنا العبارة: "هما نفس مقاطع نفس الحيوان" كترجمة لصيغة الرجل من القوم = "غافاغاي" فإننا نستنتج منها إجابات متماثلة يقدمها لنا مُخبرنا عن الأسئلة السابقة بحيث نخلص إلى أن الفرضيتين التحليليتين اللتين يمكن اعتبارهما ممكنتين (...).

إن الفرضيتين تطابقان معًا كل الترجمات التي قد نبرر كلَّ واحدة منها على حدة، كما تطابقان كل الاستعدادات لكل المتكلمين المعتبرين"[1].

يبدو أن اعتماد كواين لمقاربة اللغة من جهة كونها عبارة عن سلوك ملحوظ ناتج عن مثيرات خارجية، قد أسعفه في اجتناب المفاهيم الذهنية كالمعنى الذهني والترادف والتحليلية فركز على الظروف الخارجية التي تجعلنا نفهم عبارة "نفس الشيء" بكونها تفيد ما نتعرف عليه في كل الظروف الإثارية بحيث يتحقق لدينا أنه كذلك تبعًا لاستعداداتنا للتعرف عليه. ولهذا، يلزم أن نفحص على جهة التحقيق مفاهيم الدلالة السلوكية عند كواين لنجسّ من خلالها دعوى امتناع تحدد الترجمة.

3. مفاهيم الدلالة السلوكية ودعوى امتناع تحدد الترجمة:

في مستهل كتابه الأساسي: **الكلمة والشيء** Word and Object [2] يطالعنا كواين برؤيته الخاصة للدلاليات التي جعلته يركن إلى السلوكية كموقف نظري واختباري من اللغة؛ فاللغة كما جاء في بداية الكتاب "فن اجتماعي"؛ ولكي نكتسبه يتوقف الأمر على مؤشرات يتيحها التفاعل البيذاتي بين الأفراد وعالم الأشياء التي تحُفُّ بهم[3].

1 Quine, (1960), *Word and Object*, op. cit., p. 72.

2 فضلت أن أضع 'الشيء' كمقابل لـ 'object' على لفظ 'الموضوع'، فالشيء يَتَشيَّأ ويُعطى للذات الملاحِظة التي تتلقاه كمثير خارجي، بينما الموضوع يسكن على حاله، ويبقى عليه ما لم تقبل الذات عليه؛ فالشيء يتشيأ ويثير والموضوع يقع تحت سطوة الذات، ولذلك فالسلوكية تعتبر الشيء مثيرًا لتشيئه للذات وتأثيره فيها.

3 Malherbe, Jean-François, "Epistémologie, logique et ontologie, une mise en perspective des thèses de Quine", *Revue philosophique de Louvain*, 1978, 3/372.

ولما كان كواين طبيعانيًا وسلوكيًا، فقد قدم جملة التحديدات للمفاهيم الدلالية السلوكية التي وظفها في دعوى امتناع تحدد الترجمة، وهي مفاهيم يعترف بأهميتها في الترجمة الجذرية. ويمكن أن نجرد بعضها كما يلي:

1.3. الجمل الظرفية أو الجمل العيانية observable sentence. يهتم كواين أساسًا بالجمل الظرفية أو العيانية؛ وهو يعرفها تعريفًا سلوكيًا بالصيغة التالية: "تكون العبارة عبارة ظرفية إذا وفقط إذا كانت عيانية (أي قابلة للملاحظة العمومية من قبل الجميع بحيث يقرُّ بها المتكلم كاستجابة لنفس المثيرات". وقد تكون الجملة ظرفية غير عيانية نحو "زيد عازب" فالعزوبة **مفهوم ظرفي** يقترن بتحديدات دلالية ظرفية لا تكون من نفس دلالة جملة عيانية من قبيل "هذا أرنب".

2.3. الجمل الأبدية eternal sentence: وهي جمل تكون **تحليلية إثارية** يقتدر المتكلم على الإقرار بها في كلِّ الظروف التي قد تظهر له فيها؛ وهي جمل تحليلية بالمعنى التقليدي. ويظهر أن كواين يستعمل "كل الظروف" لنفوره من العوالم الممكنة- فهو لا يقصد ما قال به لايبنتز Leibniz بخصوص الحقائق الضرورية بكونها صادقة في كل العوالم الممكنة- ولهذا نجده يربط الجمل الأبدية بالسلوكية.

ويمكن أن نميز بين الجملة الأبدية نحو "2 + 2 = 4"، والجملة الثابتة نحو "فازنيكسون في الانتخابات"، التي تظل صادقة وثابتة لكنها ليست أبدية.

3.3. المعنى المثير stimulus meaning: صرح كواين في كتابه **النظريات**

والأشياء[1] قائلًا إن كلامنا العادي عن **الترادف** ينبغي أن نجد له أصولًا في **المعاني المثيرة** فلو أخذنا العبارتين:

(1) اللبؤة خلف الشجرة؛

(2) زوجة الأسد خلف الشجرة.

فسنجد أن "**اللبؤة**" ترادف "**زوجة الأسد**" بناء على كوننا نتعرّض في كل الظروف الإثارية الممكنة على أن '**اللبؤة**' هي "**زوجة الأسد**".

3 . 4 . الترادف المثير: أو الترادف الإثاري، ومفاده أن عبارتين تكونان مترادفتين ترادفًا إثاريًا أو ترادفًا مثيرًا إذا كنا **نقرُّبهما معا في نفس الظروف**.

يلاحظ هوكواي أن تحديد المعاني المثيرة يظلُّ ضعيفًا وقابلًا للإبطال شأنه شأن المعرفة التجريبية؛ فامتناع تمحيص الإحالة يحضر هنا سواء في مسألة امتناع تحدد الترجمة أو في مسألة امتناع تحديد النظرية العلمية؛ غير أن الملاحظة والاستقراء تعلماننا كيف نتوفر على:

(أ) يجعلنا نميز أي الجمل تكون **جملًا ظرفية** وأيها تكون **جملًا عيانية**؛

(ب) يجعلنا نتعرف تحت أي ظروف نقبل **الجمل العيانية**؛

(ج) يجعلنا نقتدر على بيان أي الجمل تكون **تحليلية إثارية** وأي زوج من الجمل تكون **مترادفة ترادفًا إثاريًا**.

1 Quine, 1981, *Theories and things*, Harvard University Press op. cit., ch. 5.

3 . 5 . ظروف الإثارة: إذا كانت الجمل الأبدية هي تلك الجمل التي نقِرُّ بها أو ننكرها على طول الزمن، فإن **ظروف الإثارة هي التي تتدخل في تحديدنا لأي صنف من الجمل نكون إزاءه**، كما أن الظروف الإثارية تحدد- فضلًا عن تمييز الجمل الأبدية من الجمل الظرفية والعيانية إلخ.؛- الكيفية التي نتعرف فيها على ما إذا كانت العبارات **عبارات مترادفة ترادفًا مثيرًا أو عبارات تحليلية مثيرة**.

3 . 6 . تحليلية الإثارة stimulus analytic: وهي تتعلق بالجمل الأبدية والثابتة معًا. فإذا كان كل متكلم بلسان ما يقرّ- في كل الظروف التي يقر فيها بنو عشيرته- بنفس العبارة، فإن هذه العبارة تعد **عبارة تحليلية إثارية**.

ومن الملاحظ أن **مفهوم التحليلية هنا يفسر تفسيرًا سلوكيًّا**. فالعبارة التحليلية تظل **صادقة بالنسبة لجميع الناطقين بلغة ما إذا أجمعوا على الإقرار بها في جميع الظروف**. ومن الملاحظ أيضًا أن كواين لم يأخذ بنظرية الاستعمال كما بيناه في موضعه. وهذا ظاهر في تغليبه للمقاربة السلوكية للدلالة في بيان دعواه القاضية بامتناع تجدد الترجمة.

لقد جاء في مقالته "**الاستعمال ومكانته في المعنى**":

"تكون عبارتان متكافئتين إذا كان لهما نفس الاستعمال. ولكي نطرح المسألة بصيغة أقل غموضًا، ينبغي أن نقول إنهما تكونان متكافئتين إذا كان التلفظ بهما محكومًا بنفس **الظروف الإثارية**"[1].

يظهر أن كواين ينفر نفورًا شديدًا من كل ما يقع في الأذهان. ذلك أن مفهوم الاستعمال لا يرتبط دائمًا بالواقع الذي يتعلق به كلامنا.

1 Quine, " Use and it's Place in Meaning ", in *Theories and Things*, op. cit., p. 48.

يمكن أن نضع في الخطاطة (2) الجدولَ التالي الذي يختزل المفاهيم السلوكية عند كواين.

	جمل ثابتة		جمل ظرفية
أبديـة	4 = 2 + 2 "الثلج أبيض"	**عيانيـة**	"هذا أرنب" "شيء يتحرك خلف الشجرة"
غير أبدية	"مر بائع الحليب" "فاز نيكسون في الانتخابات الأمريكية"	**غير عيانية**	"هذا رجل عازب"

جدول (1) : الفرق تصنيف الجمل وبيان خصوصيتها

يتبدّى لنا من خلال هذا الجدول، أين تكمن الصعوبات التي تتخذها دعوى امتناع تمحيص الإحالة ودعوى امتناع تحدد الترجمة دليلًا قويًا وذريعة قصوى للقول عمومًا بأطروحة امتناع التحدد indeterminacy thesis؛ فهناك، أولًا، صعوبة في التمييز بين الجمل الظرفية والجمل العيانية ثم بين الجمل الأبدية وغير الأبدية.

ونجد أننا، مهما ضبطنا **المعنى المثير** وحددناه، فإن ما سيظل يعوزنا هو امتناع ربط السلوك الكلامي بالظروف الإثارية ربطًا دقيقًا ومطابقًا مطابقة تامّة ومطلقة. وذلك، نتيجة فعلية لدعوى انعدام حقيقة الوجود التي يسعى

إلى نقلها المترجم في حال الترجمة الجذرية، والتي بينا فيها مع كواين أننا حين نقارن بين كراستين لترجمة جذرية لا نتوفر على ما نستند إليه لنجري المفاضلة بين الكراستين من حيث المطابقة للسان القوم من عدمها.

4. الخلفية النظرية لدعوى امتناع تحدد الترجمة:

لا تنطلق دعوى كواين من وصف تجربة المترجمين، ولا هي تأخذ بأن تعدد وتلوُّن الترجمات يجعلنا نعجز عن اختيار أجودها وأصدقها وأكثرها تطابقًا، ولا هي تُعنى بمدى مشقة الترجمة أو سهولتها. فنحن حتى عندما نتوفر على ترجمة من أعلى مستوى، لا يمكن أن نكتفي بهذا الحكم. إن دعوى تحديد الترجمة تختص بما هو أعمق من ذلك لأنها تتعلق بما يقع من امتناع وصف ما يحدث أثناء الترجمة.

هناك **غياب الوقائع** التي نستند عليها لكي نحكم بمدى مطابقة الترجمة:

"قد يصوغ مترجمان كراستين للترجمة كلٌّ منهما في استقلال عن الآخر. ونجد أن كل كراسة من الكراستين تطابق نفس السلوك الكلامي speech behavior؛ والحال أنهما ليستا متطابقتين فيما بينهما. وقد يرفض أحد المترجمين كراسة زميله (...) فلكي نحدد أية كراسة من الكراستين صائبة وأيهما خاطئة، **لا نجد أية واقعة مادية نستند إليها** non factual consideration".[1]

1 Shahan, Robert W.; Swoyer, Christopher (eds.), *Essays on the Philosophy of W. V. O. Quine*, University of Oklahoma Press, 1979.

- هل يجد المترجم بعض **الوقائع المادية** التي يمكنه أن يقيس بالنسبة إليها مدى مطابقة ما نقله إلى قومه من كلام القوم الذين يتكلمون لسانًا مخالفًا تمامًا للسان قومه؟
- هل يحتكم المترجم إلى معطياته الذاتية في اتصاله بموضوعه، أم يلجأ إلى **الاعتبارات الذريعية، والاعتبارات غير الواقعية**؟

يظهر أن كواين يمتثل لنزعته الفيزيائية التي **تميز بين أوضاع الوقائع في أجواء الخطاب، وبين الوقائع التي نأخذ بها لكونها تتضمن عناصر ذاتية أو إسقاطية**. ويتحدد السؤال الفلسفي الذي يثوي وراء هذه الدعوى (**دعوى امتناع تحدد الترجمة**) في الصيغتين الاستفهاميتين التاليتين:

- ما هو **ماصدق المعنى** أو **الترجمة** الذي نكون قد حصلنا عليه عندما نرغب في وصف بنية الواقع؟
- هل يقوم اختيارنا لكراسات الترجمة على **اعتبارات ذريعية** أم على **اعتبارات ذاتية** تفضي بنا إلى نوع من إسقاط تجربتنا الذاتية على الواقع؟

ينبغي أن نبسط الكلام، أولًا، في **المسوِّغات الفلسفية** لدعوى امتناع تحدد الترجمة لكي نظفر بأسباب ارتباطها بموضوعات دلالية تجسدت في الدعاوى التي قال بها كواين نحو دعوى امتناع تحدد المعنى، ودعوى امتناع تمحيص الإحالة ودعوى بطلان التفرقة بين التحليل والتركيب.

لقد استثمر كواين دعاويه الدلالية لدعم دعوى امتناع تحدد الترجمة. ويرى أحد دارسيه أن الفرق بينه وبين أستاذه كارناب إنما يعود إلى **القيمة**

التفسيرية explanatory value التي أعطاها كلٌّ واحد منهما على حدة لمفاهيم من قبيل "المعنى" و"الترادف" و"التحليلية"، و"البنية اللغوية" في تحديد **العقلانية والفهم والمعرفة**: يعتقد كواين أن هذه المفاهيم تفقد قيمتها التفسيرية بمجرد أن نأخذ **بالخاصية الشمولية** holistic character **للاختبار التجريبي** empirical testing.

لا مشاحة في أن اعتقاد كواين في امتناع التفرقة بين التحليل والتركيب، لا يفضي بنا إلى امتناع تحديد الترجمة[1]. غير أنه يمكن القول بأن هذا الاعتقاد يقوم دليلًا على هذه الدعوى الأخيرة خصوصًا إذا تناولناه في شكل اعتراض على كارناب الذي يعتقد - بخلاف كواين- في إمكانية نقل الوقائع المادية في لغة منسقة لأخذه بثنائية التحليل والتركيب، ولاعتقاده في أن القضية تتكون من صورة ومضمون تجريبي:

"ومع ذلك فإن ثبت وجود امتناع للتحديد، فإنه سيوفر بعض الحجج المضادة لموقف كارناب؛ فإذا كانت الوقائع لا تثبت بالترجمة بكيفية محدّدة، فإذن **لا يمكن أن توجد واقعة يمكن أن نترجم انطلاقًا منها**، العبارة الأجنبية "**الثعلبات زوجات الذئاب**"vixem are female foxs ، باعتبارها جملة تحليلية أو باعتبارها جملة تركيبية"[2].

فإذا ارتفع وجود واقعة مادية نحتكم إليها لمعرفة أي كراسة تكون أكثر مطابقة للسان القوم، فسيمتنع علينا، أيضًا، أن نعرف **الواقعة المادية للبنية اللغوية** التي يتكلمها القوم المخالف لنا في اللسان؛ إذ يمكن أن يقدم

1 Hookway, (1988), Quine, *Language Experience and Reality*, op. cit., p. 128.

2 Ibid., p. 129.

المترجمون، مقابل هذه الواقعة، بنيات صورية متباينة للغة واحدة فضلًا عن اختلافهم وتباينهم **في رصد القواعد النحوية**.

وهذه الواقعة مشهودة في **النظريات النحوية** التي تحاول أن تصف وتفسر وتنسق لغات خاصة بغية الوصول إلى الكشف عن بنيات أنحائها الخاصة. ولكي نقرب المسألة من القارئ العربي نجد أن أهل الكوفة اختلفوا مع أهل البصرة في مسائل نحوية، وظل الخلاف يمثل وجهتين من النظر داخل نحو نفس اللغة.

لقد عقب كارناب على كواين وحاول أن يبين أن مقاربة تلميذه للغة ستكون مقبولة فقط عندما يتمكن من **توضيح كيف نقيم القواعد التي يستعملها المتكلم على أساس الملاحظات العيانية لسلوكه الكلامي**، ونرى - من جهتنا- أن اعتراض كارناب ذاته يقوم دليلًا على امتناع التحدد.

لقد بات معلومًا لدينا عداء كواين للدلاليات الخالصة، أي بناء الأنساق الصورية بربطها بقواعد تركيبية ودلالية محددة انطلاقًا من دلاليات وصفية (توصف بكيفية ملتبسة أحيانا، وفي هذا السياق، بكونها تداولية). وهي تخص استعمال المفاهيم الدلالية لوصف اللغات الطبيعية الموجودة.

وقد تساءل كارناب عن سرّ تشديد كواين على "المفهوم الدلالي" باعتباره محفوفًا بالنزعة الذهنية. كما لاحظ هوكواي، من جهته، أنه من حسن حظّ كارناب أنه أوضح كيفية تناوله للمفاهيم الدلالية مع إمكانية استعمالها في الدلاليات الوصفية معتقدًا أن السلوك الكلامي كفيل بأن يبرر الرسوم الدلالية للغات الأجنبية.

هناك إشارة أخرى لابد من ذكرها، ويتعلق الأمر بأن **السلوك الكلامي** غير محدد تبعًا لدعوى امتناع تحدد الترجمة، كما جاء على لسان كواين نفسه في فصل عقده لـ "المعنى والترجمة"[1]:

"قد يكون الناس متشابهين في استعداداتهم للسلوك الكلامي، وتكون معانيهم وأفكارهم المعبر عنها (...) متباينة جذريًا بالنسبة لشخصين في حالات كثيرة ومتنوعة".

يظهر أن المعنى المثير والمفاهيم السلوكية نحو العبارة أو الجملة العيانية وما شاكلهما، لم توفر لنا جهازًا وصفيًا كافيًا للحدِّ من امتناع التحدد. ويبدو أنه حتى ولو صدق كواين في هذه القولة فإن محاولة كارناب النقدية ستؤول إلى اعتراض واهٍ وبالتالي ستبوء بالفشل.

إن مناقشة ونقد دعوى كواين القاضية بالتفرقة بين العبارات التحليلية والعبارات التركيبية التي تعرضنا لها في الجزء الأول من هذا العمل، تنقلنا إلى أطروحة **امتناع التحدد**. ففي كل لحظة فكرية اهتم فيها كواين بمسألة أساسية تتعلق بما يلي:

"كم لغة يمكن أن نعطيها معنى بحدود **شروطها الإثارية**؟ وما هو المجال الذي يتركه لنا هذا بالنسبة للتغير التجريبي غير المشروط[2] لتصوراتنا الذهنية inconditioned variation of one's s conceptual scheme? "[3].

1 Quine, (1960), *Word and Object*, op. cit., p. 2.

2 Unconditioned variation of one' s conceptual scheme.

3 Ibid., p. 26.

لقد ناقش كواين مسألة الترجمة الجذرية وبين أن المترجم الجذري radical trnslator الذي يحاول فكّ رموز لغة مجهولة لقوم لم يحتكوا بأية لغة أجنبية، لا يملك أي سلطة، ولا يتوفر على أي معجم أو دائرة معارف، ولا يستفيد من أي تجربة سابقة لنقل لسان القوم. فالترجمة الجذرية تضع المترجم في وضع يواجه فيه بكيفية مباشرة عدم وجود الجذور المشتركة بين لغته ولغة القوم؟

إنها الحالة المتعلقة **بالترجمة الجذرية**. وهي حالة أساسية لفهم دعوى امتناع التحدد. ففي هذه الحالة ندرس الوقائع الدلالية المتجسدة في السلوك الكلامي دون أن نغامر بالانكباب على المعلومة معزولة عن السلوك العياني؛ فالمعلومة تتضمن، بشكل مسبق، التأويل الدلالي للغة الأجنبية.

ولذلك نجد أن كواين يلغي التداخل الذي قد يحصل من جراء اعتبار اللساني مترجمًا ومخبرًا عن القوم الذين يترجم لنا كلامهم. ينبغي أن نترك لأنفسنا الحرية في التركيز على العلاقة القائمة بين الواقعة الطبيعية والسلوك الكلامي.

5. امتناع تحدد الترجمة و"أسطورة المتحف":

أسطورة المتحف museum myth استعارة أطلقها كواين ليصف بها التصور التقليدي للمعنى الذي اعتبر أن لكلِ لفظ أو جملة معنى محددا؛ وهكذا، شبه المعروضات في المتحف بالمعاني، والألفاظ بالبطاقات الصغيرة التي تدل على هذه المعاني، وشبّه المتحف بالعقل. ولا حاجة بنا إلى التذكير بأن كواين قد رفض رفضًا باتًا - بناء على امتناع تحدد الترجمة - أن

يكون للمعاني وجود ثابت في أذهاننا يتجاوز ما يُعطانا في السلوك القابل للملاحظة observable behavior.

يرتبط رفض كواين لأسطورة المتحف، بأطروحته الحاسمة بخصوص امتناع التفرقة بين التحليل والتركيب؛ فلو افترضنا وجود الفرق بين القضية التحليلية والقضية التركيبية، فإننا سنحتاج إلى تفسير متسق للترادف، ولكي يكون الترادف ثابتًا يجب علينا أن نقول بوجود اتحاد في المعنى؛ والحال أنه لا وجود لمعان محددة؛ وبالتالي فإن متحف المعاني عبارة عن أسطورة[1].

إذا كان كواين قد بيّن بوضوح أنه لم يظفر بأي تحديد دقيق ومقنع لتعريف الترادف، وبالتالي لم يثبت لديه أن الفصل بين القضايا التحليلية والتركيبية فصل حاصل، فقد رفض أسطورة المتحف ولو كانت تتمتع بنوع من الواقعية، حيث لاحظ أن اللغة تزوّدنا ببطاقات المعاني التي تعيّن الذوات الذهنية/ المجردة أو الموضوعات الخارجية.

لم يرض كواين بالدلاليات غير النقدية uncritical semantics التي تجمد على وجود المعاني في الأذهان تقابلها موضوعات بالخارج؛ فعلى الرغم من كوننا قد نغير، حسب كواين، البطاقات أو اللغات، فإن المعروضات في المتحف تبقى على حالها. ومن هنا، يعترض كواين اعتراضًا معرفيًا epistemic فهو يرى أن فهمنا للغة لا يمكن إلا أن يصدر عن ملاحظة الشاهد السلوكي behavioral evidence القابل للملاحظة والقياس.

1 Quine, 1969, *Ontological Relativity*, op. cit., p. 27

لقد اختلف كواين مع كلٍّ من تشومسكي وهيلاري بوتنام Putnam؛ ويرجع الاختلاف إلى تصور كلِّ واحد منهما **لعلاقة اللغة بالعقل وبالمعرفة** عمومًا. فإذا كان تشومسكي يبحث هذه العلاقة انطلاقًا من مصادرة تقضي بوجود **بنيات ذهنية** mental structures بحيث يعمل على اختيار بعض المسائل ذات الصلة **بالقدرات المعرفية البشرية، وبالبنيات الذهنية** التي تشتغل بواسطتها هذه القدرات[1]، فإن كواين يصادر، بخلاف ذلك، على مماثلة الفكر بـ "**الاستعداد للسلوك الكلامي**"[2].

وبناء على هذا التعارض، فإن موقف كواين من الدلالة الذهنية، كما بيناه سابقًا، أصبح أكثر وضوحًا عندما رفض **البنيات الذهنية بالمعنى النفساني**. وهكذا صارت دعوى امتناع تحدد الترجمة تمثل خلفية نظرية وفلسفية لرفض الدلالة الذهنية.

لقد اعتبر كواين أن ما يفترضه دعاة النزعة الذهنية من معان أو ذوات ذهنية لا يثبت أمام نتائج دعوى امتناع تجدد الترجمة: "يدعي كواين- دون أن يعدم دليلًا على دعواه- بأن علم الدلالة الذهنية لا يتوفر، بخصوص امتناع تحدد الترجمة على أية فكرة"[3].

والواقع أن كواين عندما بلور دعواه المتعلقة بامتناع تحدد الترجمة الجذرية المبنية على **فرضيات تحليلية**، وعندما تبين له **امتناع تحدد**

1 Chomsky, *Règles et représentations*, trad. Fran. Alain Kihm ed. Flammarion, 1980, p. 7.

2 Ibid., p. 239, n° 1.

3 Ibid., p. 241, n° 25.

النظرية العلمية التي تدعي أنها تقارب الواقع ولا تستعيد بناءه بكيفية مطابقة، وعندما صاغ دعوى **النسبية الأنطولوجية**، كان كل ذلك مدعاة له للأخذ **بخلفية نظرية نسبية أو معتدلة**.

يقول كواين بهذا الخصوص:

"لا وجود لفرق معرفي بين دراسة الوقائع الدلالية ودراسة الوقائع الطبيعية **فنمط المعرفة واحد**. وبخلاف ذلك، هناك اختلاف عميق في الواقع الذي نسعى إلى معرفته. وقد كانت بعض مظاهر هذا الاختلاف معروفة منذ زمن بعيد: اعتباطية العلامة والتغيرات الثقافية التي تعتريها.

فليس **طيف الألوان** Spectre des couleurs، مثلًا، مقسّمًا بنفس الكيفية في جميع الألسن. ومع ذلك، فقد اكتشف "كواين" مظهرًا آخر لم يفطن إليه أي أحد قبله وهو جد أساسي، إنه: **امتناع تحدد المعنى**"[1].

لا ينتمي هذا الاكتشاف إلى المواضعة؛ بل ينتمي إلى ما انتبه إليه كواين، نظرًا لتشبُّعه بالنزعة السلوكية، ويتعلق الأمر بأن المعنى ينتمي إلى اللغة واللغة اجتماعية وعمومية. لذلك لا يكتسب الطفل اللغة انطلاقًا من مقوِّمات ذهنية عقلية، بل إنه يمتلكها انطلاقًا من السياق الاجتماعي الخارجي.

لا يتلقى الطفل عند اكتسابه للغة الكلمة معزولة عن السياق وعن تعلقها بشيء تثبته أو تنفيه. وهذا ما يترتب عنه **اقتران اعتقاد المتكلم المعرفي بالتزامه الأنطولوجي**. أما الشيء الذي نتكلم عنه فهو موجود قبل أن نسميه ومن هنا واقعية كواين.

1 Gochet, (1978), *Quine en perspective*, op. cit., p. 72.

هناك مسألة لابد أن نعرض لها قبل أن نتناول علاقة كواين **بالنزعة الاسمية**: كيف يتحدد موقف كواين الواقعي من العقلانية؟

لما كان كواين ينطلق في فلسفته من نزعته الفيزيائية الواقعية، ويصدر عن رؤية تأخذ بالذريعية مع تبيان حدودها، ولما كان يرد الوقائع إلى المنطق والسلوك مستلهما أعمال كلٍّ من بيرس Peirce وهاريس Harris وخصوصًا بلومفيلد Bloomfield، فإن موقفه سيتعارض، لا محالة، مع العقلانية، إذ لا يمكن للموقف الطبيعي للنزعة الفيزيائية أن يتعايش مع العقلانية. فأي علاقة أقامها كواين مع العقلانية؟

يعد كتاب **الكلمة والشيء** 1960 أطروحة فلسفية تؤسس التصور التجريبي للمعرفة اللسانية وإن كان فيلسوف هارفارد لا يُسقط دور العوامل الفطرية Innate، فهو يعتبر أن **اكتساب اللغة تابع للسلوك**.

يخصص كواين ثلاث آليات يكتسب الطفل بواسطتها اللغة:

أ. ربط الجمل بالمثيرات؛ وهنا تتبدّى لنا واقعية كواين حيث يكون المثير الخارجي أساسًا لاكتساب اللغة، فليس ثمة مسبقات فطرية، وهنا نستحضر الحدود المادية: 'ماما'، 'أحمر'، 'ماء'...التي يتلقاها الطفل من عالمه الخارجي؛

ب. ربط الجمل فيما بينها؛ ولا يتعلق الأمر سوى بالروابط المنطقية التي تجد أصلها في العلاقات الموجودة بين الأشياء كما سبق لجان لوك أن أشار إليه: من العلاقات بين الأشياء في عالمنا الخارجي إلى العلاقات بين الأفكار في عالمنا الذهني؛

ج. تركيب المماثلة الذي يسمح باشتقاق جملة من معاني جمل أخرى[1]، ولا يفيد هذا التركيب إجراء العمليات التوليدية بالتحديد الذي أعطاه تشومسكي.

لقد آثار هذا الموقف تشومسكي Noam Chomsky 1965 الذي استلهم في كتابه **مظاهر النظرية التركيبية**[2] المنظور العقلاني المنحدر من ديكارت Descartes مرورًا بنحو مدرسة "بورواياليPort Royal" مع أرنو ونيكول Arnaud et Nicole ومرورًا بلايبنتس Leibniz لينتقد المنظور التجريبي.

يعرض تشومسكي تصوره العقلاني مجملًا في الفرضية التالية:

"تكون صورة عامة ما لنسق معرفي ما مثبتة **قبليًا في صورة استعداد ذهني**. وتكمن وظيفة التجربة في حمل هذه البنية العامة على التحقق"[3].

ويمكن أن نربط هذه الدعوى بما نادى به لايبنتس كأساس للعقلانية القائمة على القول بالأفكار الفطرية.

هناك تعارض، إذن، على مستوى القدرة اللغوية بين عقلانية تشومسكي وتجريبية كواين المرتبطة بسلوكيته.

يرى تشومسكي أن الوقائع تكذِّب التصور التجريبي، فكيف يكتسب الطفل اللغة ويستطيع انطلاقًا من مبادئ بسيطة للغاية أن يفهم أو يصوغ عبارات جديدة عليه تمام الجدة بحيث لم يسبق له أن سمع بها أو قام بصوغها؟

1 Gochet, (1978), op. cit., p. 73.

2 Chomsky, *Aspects of the theory of syntax*, Mass Institute of technology Cambridge, 1965.

3 Gochet, (1978), op. cit., p. 75.

يجيب تشومسكي بدعوى القدرة الخلاقة للغة Creative aspect of language التي تحدث عنها في معظم كتاباته التنظيرية كما هو الأمر في كتابه: **اللغة والعقل** 1968 وفي كتابه: **تأملات في اللغة** 1975 وقدم بذلك حلًّا لما عجزت التجريبية عن تفسيره تجسد في ادعائه ضرورة "التسليم بوجود **بنية فطرية** تكون على قدر من الكفاية لرصد التباين الحاصل بين التجربة والمعرفة"[1].

وتبعًا لمبدأ الاستقراء في تثبيت الأسماء على مسمّياتها، يلاحظ المترجم أن العبارة الغريبة عنه هي التي يكون بإمكان القوم من هذه العشيرة أن يقبلوها أو يرفضوها. فالعبارة "غافاغاي" تقال بإزاء الأرنب. ويكررها أفراد القوم كلما عاينوا الأرنب؛ غير أن اللساني يسجل تحفظه بخصوص الترجمة السليمة لهذه العبارة فيضع في كراسته كمقابلات محتملة:

."هناك أرنب"؛

."انظر هذا أرنب"؛

."انظر أرنبية أيضًا"؛

."...".

"هل ستحظى هذه الترجمة، على الأقل بحظوظ تجعلها موضوعية مهما كانت العشيرة غريبة؟ إنها تقبل عبارة القوم كعبارة بسيطة تعلن عن "أرنب". وبخلاف ذلك، فإن الخطوة المِقدامة التي سيقوم بها اللساني،

1 Chomsky, (1975), *Reflexions on language*, Pantheon, New York, p. 117.

فيما بعد، بفرض أداته لتثبيت الموضوعات بدون أي تبرير خاص، تقتضي مساواة اللفظ "أرنب" بالعبارة الغريبة أو بأي مقطع من أجزائها[1]".

فلا يجزم المترجم بأن العبارة "غافاغاي" تحيل إلى الأرنب الواقعي، أو تدل على الأرنب كلفظ كلي أو على "الأرنبية..."، يجب أن نعرف كيف نتساءل إذا كان هذا الشيء هو نفس **الكذا والكذا الماثل أمام أعيننا...**، وباختصار فإننا نحتاج إلى شيء ما من قبيل **آليات المماثلة والتسوير**"[2].

إن ما ينبغي أن يحترز منه المترجم هو أن ينقل إلينا لائحة من عبارات القوم يضع لها ما يقابلها في لغتنا، فهذه العملية لن تمكننا من معرفة دقيقة بلغة القوم، كما أنها لن تمكننا من الحكم بسلامة الترجمة.

تكمن مهمة اللساني، إذن، في رد اللاتناهي الممكن لعبارات القوم إلى قائمة محدودة نسبيًا بحيث يمكن تداولها. وتشمل هذه الكراسة **الصيغ والأدوات النحوية**. وتبين الكيفية التي تقوم بها والأدوار التي تلعبها في تكلمنا عن الواقع الخارجي بشكل يطابق لغتنا.

يلاحظ كواين أن هذا الاحتراز من كون اللساني حين يُقدِم على ذلك قد يقع تحت تأثير السياق ويكون عليه أن يقدم تعليمات مسبقة لإحكام الترجمة والعملية الدائرة بين اللغة المنقول إليها واللغة المنقول منها والعكس. وهذا يحتاج إلى حصر وتحديد السياقات الممكنة؛ وبالتالي تقديم **تعريفات سياقية**. وقد يقع اللساني أيضًا تحت تأثير **إسقاط رؤيتنا الأنطولوجية** على لغة القوم.

1 Quine, 1969, *Ontological Relativity and Other Essays*, op. cit., p. 14 ff.

2 ibidem.

وقد يتفق أن يصادف اللساني عبارات لا شواهد لها في الواقع، بحيث يمتنع عليه أن يقرنها بها فينتقل مما يسميه كواين **بالعبارات العيانية** إلى **عبارات ظرفية**:

وبعنايته بهذه العبارات غير المترجمة، يصادف [أي المترجم]، بكيفية طارئة، مؤشرات للروابط المنطقية كأن يكتشف، على سبيل المثال، أن الأشخاص المستعدين لقبول - أو إثبات (أ)- هم أولئك الذين يكونون مستعدين، بالضبط، لقبول (ب) ورفض (ج)[1].

وبهذه المناسبة، نشير، من جديد، إلى أن كواين اعتبر المترجمين القائلين بوجود **عقلية قبل منطقية** أتباع ليفي برول Lucien Lévy-Bruhl[2] مترجمون فاشلون؛ وذلك لأنهم أساؤوا نقل الأدوات المنطقية، فأسقطوا عليها أنطولوجيتهم وإيديولوجيته. وهكذا، تقوم دعوى امتناع تحدد الترجمة دليلًا ضد دعوى العقلية القبل منطقية[3].

إن المترجم أو المعجمي lexicographer الذي ينقل لسان قوم مختلفين يتزود بآليات مأخوذة أصلًا من لسانه الخاص. ومع ذلك قد يبدي حنكته وقدرته الخلاقة:

"تظهر القدرة الخلاقة للِّساني في إسناده للوظائف الخاصة والمميزة للملفوظات المكونة، أو للمقاطع الظاهرة المباشرة للعبارات التي أحصاها.

1 Quine, *Ontological Relativity and Other Essays*, op. cit., p. 14 ff.

2 Lévy-Bruhl, Lucien, *La mentalité primitive*, Oxford at the Clarendon Press, 1931.

3 McDowell, John, *Mind and World*, Harvard Universites Press and Cambridge-Massa Chussetts- London - England, 1994.

وتتحدد الوسائل الممكنة الوحيدة لحمل حكم على الإسنادات فيما يلي:

- يمكن أن ننظر فيما إذا كانت الإسنادات [المقابلات] تقيم التصور المسبق لعبارة "غافاغاي" وللعبارات المماثلة لها بالتطابق مع شروط صدقها التي سبق اكتشافها؛
- يمكن أن ننظر أيضًا، فيما إذا كانت تتكيف جيدًا مع المعطيات اللازمة المتعلقة بالعبارات الأخرى أي تلك التي لا نعرف عنها- بالنظر إلى تعذر معرفة شروط صدقها- سوى ما يقطع به أفراد العشيرة؛
- وخارج هذه القيود، لا نستطيع أن نحكم على هذه الإسنادات - أو المقابلات التي يضعها المترجم قبالة ملفوظات أفراد العشيرة التي ينقل لسانها- إلا من جهة بساطتها وخاصيتها الطبيعية بالنسبة لنا"[1].

تتدخل الحدود الشخصية والحدود الكلية والمماثلة والتسوير، وما إلى ذلك من الضوابط والمحددات التي تقتضيها اللغة لضبط الأنطولوجيا في نقل لغة القوم إلى لغتنا. وقد تتطابق إجراءات اللساني مع كلّ المعطيات اللسانية المحكمة، ويمتنع علينا أن نجري مفاضلة فيما بينها، ويكون الضابط الوحيد هو ما يسمح لنا بـ"تقنين" لسان القوم وتبسيطه وتطبيعه حتى يتهيأ لنا استيعابه.

يعترف كواين بأن **دراسة اللغة تماثل دراسة العقل** أو الفكر بكيفية عامة، ويأخذ بمؤثرات الوسط أو المحيط، إلى جانب تكويننا الداخلي الفطري الذي لا يقصد به- على كل حال- المسبقات العقلية **كالأفكار الفطرية**؛ بل

1 McDowell, *Mind and World*.

يقصد به الاستعدادات الذهنية القائمة في **شبكتنا العصبية**؛ غير أنه يعلي من شأن الظروف أو المحيط الخارجي، ويقلل من شأن كل فكر ينحو نحو نفي افتراض ما يعرف بأسطورة المتحف. فهو يرفض شأنه في ذلك شأن فتغنشتاين رفضًا قاطعًا الفكرة القائلة بأن المعنى يدل، بالأساس على شيء خاص يكون بمثابة **صورة ذهنية خفية**.

إنها **أسطورة المتحف** القاضية **بأن الكلمات تمثل أسامي الأشياء القائمة في الأذهان**. وهي دعوى يدعونا كواين إلى رفضها. فتفسير كفايتنا اللغوية، وبالتالي تفسير المعاني التي تتخذها ألفاظنا وعباراتنا لا يمكن أن يتم إلا بناء على تجربتنا، أي بناء على **الوقائع الحسِّية** لكل ما نتعرض له نحن وحواسنا طوال الزمن من ظواهر حسية من نوع معين. يقول كواين بهذا الصدد:

"وعلم الدلالة غير النقدي هو **أسطورة المتحف** حيث الأشياء المعروضة فيه هي المعاني، بينما تكون اللافتات هي الكلمات"[1].

إن فرضية وجود **الموضوعات أو الأشياء الذهنية الداخلية** المسماة بالألفاظ تعوق، بالضرورة، التفسير لأنها لا تقوم سوى بإخفاء الثغرات التي تعتري فهمنا للكيفية التي نكتسب بواسطتها القدرة على التحكم في استعمال اللغة:

1 Quine, *Ontological Relativity and Other Essays*, Newyork and London Colombia University Press, 1969, p. 27.

ونحن نجاري ما ذهب إليه هوكواي حين اعتبر أن التصور التقليدي للغة والعقل قد بدا خطؤه وصار التعويل على **المنظور الماصدقي** في دراسة ومعرفة المواقف القضوية لأفعال الناس اللغوية بديلًا عنه[1]. تلك هي الحجة التي قدمها كواين ضد **أسطورة المتحف** وقد لخصها لير Lear وبين أصل رفض كواين المطلق **للنزعة الذهنية**.

ونرى من جهتنا أن كواين قد ظل وفيًا للروح التجريبية وللمبدأ السلوكي المعادي للمفاهيم أو الذوات المجردة. وهذا يجيز لنا أن نعتبر حجته ضد أسطورة المتحف حجة تضاهي حجة تشومسكي ضد السلوكية والنزعة التجريبية التي جاء فيها بدعوى **فقر المثير** poverty of stimulus وعدم كفاية الاستجابة الشرطية لتفسير عملية اكتساب اللغة. فلنبسط القول في دعوى تشومسكي ونكشف عن مدى قوتها الحجاجية في مواجهة **التفسير السلوكي** لعملية اكتساب اللغةLanguage acquisition.

لقد شغلت مسألة كيفية تحصيل الإنسان للمعرفة منذ سقراط حيث جاءت على لسان تلميذه أفلاطون المقولة الشهيرة : "المعرفة تذكُّر والجهل نسيان"، مرورًا بالفلاسفة العقلانيين من ديكارت فإلى فون هومبولدت Wilhelm von Humboldthالذي ماهى بين العقل وبنيات اللغة، فإلى تشومسكي، ونحن نشهد التوكيد على العلاقة الوطيدة بين اكتساب اللغة وتحصيل المعرفة؛ إذ ليست تحصل المعرفة إلا من خلال اللغة.

ومن هنا يمكن أن نثير السؤال: هل السلوك الكلامي مكتسب أو موهوب؟

1 إسماعيل، صلاح، **فلسفة اللغة والمنطق، دراسة في فلسفة كواين**، دار المعارف، 1995، ص 273 وما بعدها.

إننا لنتعلم الألفاظ **في حضور الموضوعات الخارجية**، وسرعان ما تصبح ألفاظنا أكثر تجرُّدًا عن الوقائع التجريبية العيانية. ومن هنا ميز كواين بين درجات من الحدود، بحيث يقتضي تكلمنا عن الموضوعات أو الموجودات الخارجية أن نستعمل الحدود التي تسم هذه الموضوعات. وهكذا استثمر "كواين" نظرية التسوير والحمل.

لقد ميّز كواين بين أنواع ثلاثة من الحدود التي نكتسبها لسانيًا، وهي كالآتي:

(ا) حدود المادة Mass. Terms؛

(ب) حدود شخصية Singular. Terms ؛

(ج) حدود عامة General terms .

وهي ترتبط **بآليات التشخيص** Objectification. وتكون آليات التشخيص ملتبسة؛ لأنها تكون أحيانًا مشخِّصة وأحيانًا أخرى غير مشخِّصة. وتتغير إحالتها بحسب وقوعها أي وضعها إما كموضوع أو كمحمول، وكمثال على ذلك، يستعرض كواين في كتابه نسبية الأنطولوجيا (في الفقرة III من المقالة الأولى) مراحل اكتساب الحدود من الطفولة إلى سن الرشد[1].

فالطفل يستعمل في البداية، حدودًا مادية (٤) كي يعين جزءًا مما يراه في محيطه (نحو: "ماما" "أحمر"، "ماء"....). ومع ذلك فهو لا يستعملها كحدود مادية لأنه لا يفقه أن "ماما" تظهر، هي نفسها في فترات زمنية

1 Quine, *The Roots of reference*, Open court, la Salle, Illinois, 1974.

متباينة، ولا يعلم أن "أحمر" لفظ مادي يتمتع بالقدرة على **توزيع أوتقسيم إحالته**. فالطفل لا يفرق بين الظواهر "ماما" و"أحمر" و"ماء".

فهذه الحدود توجد **على نفس الدرجة بالنسبة إليه** حيث نجد ما يخطر له هو: "مزيد من "ماما"" و"مزيد من "أحمر"" و"مزيد من "ماء""إلخ.؛ فنحن حين لا نقوم سوى بإسقاط **عملية التشخيص** على الطفل حين يستعمل حدود المادة؛ وذلك رغم كوننا لا نستند في هذا الإسقاط سوى على المادة الماثلة أمامه.

ومن هنا يرى كواين من الواجب أن نصرح بأن الطفل لا يزال في هذه المرحلة عاجزًا عن **تمثل الموضوع**؛ وتمثل هذه المرحلة ما يمكن أن نعبّر عنه بدرجة **الصفر في الحمل**[1] حسبما يذهب إليه لارجو J. Largeaut. فقد يتلفظ الطفل بجمل تحمل لفظًا واحدًا لا لشيء إلا لمحاكاة الأصوات بل قد يستعمل لفظًا دون أن يكون هذا اللفظ صادقًا على موضوع متعين.

لقد اعتبر صاحب النظرية البنيوية التكوينية جان بياجي Jean Piaget أن اللغة وإن كانت اجتماعية، فهي تتوقف على آليات معرفية داخلية mécanismes cognitifs internes، وبالتالي فهو يقول **بأسبقية الفكر على اللغة**[2].

1 Mass terms, degré zéro de prédication see reference in Quine, (1974), op. cit.

2 Piaget, Jean, *L' équilibration des structures cognitives, problème central du développement*, Paris Press universitaires de France, 1975.
Piaget, *Schèmes d' action et apprentissage du langage*,
وهذا الفصل هو جوهر ردوده على تشومسكي في المناظرة الشهيرة التي دارت بينهما راجع:
Piaget et N. Chomsky, *Théories du langage théories de l' apprentissage, le débat entre J. Piaget et N. Chomsky*, éditions du Seuil. 1979.

يرى بياجي أن الطفل يتكلم، منذ ميلاده بأشكال من اللغات حيث يعبر بالبكاء عن الجوع، أو عن الألم، ويصدر أصوات تأتأة balbutiements كأنها تغريد gazouillis محاكية onomatopées...إلخ؛ إلى أن يتلقى من محيطه الخارجي جملًا لغوية فلا يستطيع فك رموزها إلا بعد أن يبلغ طورًا من أطوار نموه يحصل فيه القدرة على صوغ الرموز اللغوية وتمثل الواقع في إطارها.

أما العقلانيون فقد ذهبوا إلى أن العقل هو الإطار الأسبق لتحصيل كل معرفة ممكنة، وبالتالي، فثمة أفكار فطرية مسبقة قائمة في أذهاننا، الشيء الذي يقابل ما ذهب إليه التجريبيون الذين يرون أن اكتساب اللغة يتم باكتساب القدرة على الكلام بالإشراط الحسّي وامتلاك مهارة التعبير اللغوي.

وإذا كان السلوكيون قد اعتبروا منذ أعمال بيروهس سكاينر Burrhus Skinner أن الطفل قبل أن يتملك القدرة على التواصل اللغوي يتلقى من محيطه الاجتماعي جملة من الألفاظ والجمل والاستعمالات اللغوية السياقية فيستدخلها كمدخلات in-puts سرعان ما يوظفها في مقامات مخصوصة، فيتدرج في اكتساب اللغة الأم عن طريق التعلم[1].

واللغة عند سكاينر عبارة عن **سلوك لغوي** Verbal behavior قابل للملاحظة والقياس، ولا تكون ثمة أي **مسبقات فطرية** يمكن المصادرة عليها، فالطفل لا يتوفر سوى على ما يمده به محيطة الاجتماعي بالمعطيات اللغوية التي يستمدها من لغته الأم.

1 Skinner, B.F, *Verbal Behavior*, New York, Appelton, 1957

ومن هنا، لا يأخذ سكاينر وأشياعه السلوكيون بالعوامل الذهنية، ولا بالمؤثرات الداخلية التي قد نبني عليها عملية اكتساب الطفل للغة؛ فلا سبيل لاكتساب اللغة إلا من طريق التعلم. وذلك بالإشراط المرتبط بالمثير-الاستجابة stimulus-response بالمحاولة والخطأ، وبالتعزيز reinforce-ment.

لقد اعتبر سكاينر أن اكتساب اللغة عبارة عن سلوك معرفي cognitive behavior، حيث يتملك الطفل اللغة عن طريق المحاولة والخطأ trial and error؛ ويحصل ذلك بالإشراط الإجرائي operant conditionting. ولم يأبه بوجود أي معطى فطري يفسر اكتسابنا للغة، فجعل التعلم هو السبيل الوحيد لتملك اللغة.

أما تشومسكي فلم يقتنع بأطروحة سكاينر فجاء بدعوى فطرانية اللغة nativism or innatism حيث ذهب إلى القول بوجود نحو كلي universal grammer مضمر في كل لسان طبيعي أو لغة خاصة، وهي القواعد الصورية القبلية لكل إمكان لاكتساب اللغة، واعتبر أن **المثير غير كاف لاكتساب اللغة** منطلقًا من المعطيات التالية التي تتخللها بعض التساؤلات:

- عدم كفاية **المثير-الاستجابة** stimulus-response لتفسير اكتساب الطفل للغة؛
- هناك **قبليات فطرية ذهنية** يمتلكها العقل وهي تشكِّل الأساس لاكتساب اللغة والتمكن منها؛
- كيف نفسر أن الطفل يتمكن انطلاقًا من مجموعة محدودة من الجمل أن يولِّد ما لا نهاية له من الجمل؟

- كيف يتمكن الطفل من صوْغِ جمل لم يسبق له أن سمعها في محيطه؟

ولهذا لم يكن التفسير السلوكي لاكتساب اللغة مقنعًا، ولذلك، جاء تشومسكي بما يمكن وصفه **بلسانيات ديكارتية**؛ لأن ديكارت هو المرجع للقول بوجود **الأفكار الفطرية** التي وظفها تشومسكي لإسناد دعواه.

وقد دارت نقاشات طويلة، ونشب جدل قوي بين تشومسكي وكواين بهذا الخصوص، وإن كان كواين في قوله بامتناع تحدد الترجمة أقرب إلى الأخذ بعدم كفاية المثير لولا دعوى امتناع تمحيص الإحالة؛ فهو يرى أن المترجم الجذري الذي ينقل لغة غريبة عنه إلى لسان قومه ليس له من سبيل سوى أن يأخذ بالمثير. فلنتأمل هذه الفكرة في ضوء نسبية الترجمة بعد أن تمعّناها في النسبية الأنطولوجية.

6. نسبيـة الترجمـة

واجه كواين في أطروحته حول امتناع تحدد الترجمة جملة من الانتقادات، ومن بينها الخلفية السلوكية التي دعّم بها دعواه تلك. غير أنه اعتبر أن سلوكيته ليست كالسلوكية الكلاسيكية التي تزعمها سكاينر، والتي تعرضت لفشل نظري ذريع. ومع ذلك، يعترف كواين بكون أطروحته كانت نتيجة لنزعته السلوكية[1]، ولا ينسب ذلك إلى أخذه بنظرية سكاينر على علاتها.

تكون عملية نقل عبارة من لغة إلى أخرى بمثابة دالة **ك** نحو:

ك (Schnee ist Weiss) = "الثلج الأبيض".

1 Quine, "Indeterminacy of Translation again"; *Journal of philosophy*, 84M 5-10, 1987.

فبما أن أغلب اللغات تتضمن عددًا غير محدود من العبارات، فإن هذه الدالة ستعمل على تقسيم اللغة المنقولة وفق تقطيعات تخضع فيها للغة المترجم الأصلية. ورغم أن المترجم يحاول جاهدًا أن يضع قائمة أو لائحة أولية من المقابلات الأساسية التي يدوِّنها في كراسته (**وهي ما يمثل الفرضيات التحليلية**) فإن كراسة الترجمة لا تكون مطابقة تمامًا لكراسة أخرى يكون مترجم آخر قد وضعها.

لا تكون الكراسة مطابقة إلا إذا كانت العبارات التي يستعملها المترجم كدليل وكقيمة (وهي في هذه الحالة "Schnee ist wiess" و"الثلج الأبيض") متكافئة من الناحية الدلالية أي أنها مترادفة.

تتحدد دعوى كواين في أننا **قد نحصل بين لغتين على عدة كراسات للترجمة تكون كلها مطابقة للسلوكات الكلامية للمتلفظين باللغة المنقولة غير أنها لا تكون متطابقة فيما بينها**. فالكراسات تقدم ترجمات غير متماثلة لعبارات كثيرة.

وتبعًا للمثال السابق قد يزوِّدنا المترجمون بمقابلات عديدة للعبارة الألمانية "Schnee ist weiss" وقد يحكم المتكلم الأصلي بعدم مطابقتها وترادفها مع عبارة لسانه. وهكذا فإن المتكلم الأصلي سيقرُّ **بأن الترجمات المقترحة عبارة عن قيم صدقية متباينة، فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب**. وهذا يقوم دليلًا على نسبية الترجمة.

مازلنا، في هذه العملية، نحتاج إلى تحديد مدلول **التكافؤ الدلالي** semantic equivalence ومعلوم أن التكافؤ الدلالي يتوقف على مدى

مطابقة الترجمة للسلوك الكلامي. فكل الكراسات المقترحة تتساوى في زعمها مطابقة السلوك الكلامي غير أننا **نفتقر لمعيار نعاير به هذه الكراسات لكي نعرف أي هذه الكراسات تطابق، مطابقة تامة، السلوك الكلامي.**

إن الدعوى الأساسية تتجلى في **نسبية مطابقة كراسة الترجمة للسلوك الكلامي**، وقد حدد كواين في أكثر من موضع من كتاباته، التكافؤ الدلالي بقوله:

"تكون عبارتان متكافئتين إذا كان لهما **نفس الاستعمال** وللمزيد من التوضيح، واحترازًا من طرح الموضوع بصورة أقل عمومية يلزم أن نقول بأنهما تكونان متكافئتين إذا كان التلفظ بهما قابلًا للتمحيص في ضوء نفس **المواقف المثيرة**"[1].

لقد تحفظ كواين بشأن هذه المسألة مبيِّنا أن هناك عدة عوامل يتأثر بها السلوك الكلامي. فعلى الرغم من افتراض وجود ما ندعوه "**نفس الاستعمال**" نجد أن هناك دوافع كثيرة يقتدر بها المتكلم على التلفظ بعبارة قد تتنوع بشكل كبير وتظل ممتنعة عن التمحيص.

هكذا يربط كواين امتناع تحدد الترجمة ونسبيتها بامتناع تمحيص الإحالة. وقد عزز هذا الموقف بدعوى امتناع تحدد النظرية العلمية مبينًا أن النظرية العلمية لا تقرر بخصوص جميع الوقائع بعبارات تقابل هذه الوقائع الواحد بالواحد.

إن امتناع تحدد الترجمة يرتبط أيضًا **بامتناع تحدد المعرفة** إذا ما ربطنا هذه الدعوى بدعوى **نسبية الأنطولوجيا**؛ فلكي نتعرف على الشروط

1 "The same Stimulatory situations" see Quine, *Theories and things*, op. cit. p. 48.

الدقيقة للترجمة، ينبغي أن نُعنى بما أصبح يعرف **بمجال النظرية المعرفية** cognitive theory وننْظر في بؤرة ضيِّقة تتعلق بالتكافؤ المعرفي cognitive equivalence ونغفل المظاهر الأخرى للمعنى.

حين يرغب المترجم أن يفحص، على جهة التثبُّت من مدى مطابقة ما نقله من ملفوظات للسلوك الكلامي، من جهة، ولما أثبته من مقابلات لها في لسانه، من جهة أخرى؛ فإنه ينطلق من الإثبات والنفي أو الإقرار والإنكار assent and dissent.

ومن هنا، يواجه المترجم الرجل من القوم الذين ينقل كلامهم في ظروف مثيرة محددة بنفس الملفوظات ليتأكد مما إذا كان سيقربها أو ينكرها. وعلى سبيل المثال فإن تلفظ الرجل بـ "غافاغاي" يجعل المترجم ينظر في **المعنى المثير** الذي يتحدد في **ظروف مثيرة** باقترانه بالإشارة إلى "أرنب"؛ ولهذا يعمد المترجم إلى معاودة السؤال "غافاغاي؟" في ظروف إثارية متشابهة. وهكذا يغدو معيار الإنكار أو الإقرار محددًا لما سيدوِّنه المترجم في كراسته.

غير أن الأدوات المنطقية كالنفي والإثبات (الإقرار والإنكار) وغيرها تظل، بدورها، ممتنعة عن التحدد في الترجمة. لذلك فإن ادعاء بعض الأنتروبولوجيين أمثال ليفي-برول **وجود عقلية قبل منطقية لا يرجع إلى قصور منطقي أو عقلي في لغة القوم، بل إنما يرجع إلى فشل الترجمة، وقصور المترجم عن إدراك الأدوات المنطقية التي يستعملها القول المخالف للسان قومه ومنطقهم المتضمن في اللغة.**

لقد اختار كواين **الجهاز العصبي** للمخبر الذي يزوِّدنا بمعلومات عن قومه كمطية لربط السلوك الكلامي بالمثيرات الخارجية. وهنا يظهر التأثير السلوكي في فكر كواين كما بيناه في موضعه. فلكي نصف الظروف الإثارية بحدود فيزيقية واضحة يجب أن نختار الكيفية التي نحدد بها **وقع الأشياء الممتدة في العالم على الجهاز العصبي لمن يخبرنا عنها بفحص المستقبلات الحسية:**

"يكون المثير الذي ينتقل إلى (المتكلم الأصلي الذي ننقل كلامه)، في كل لحظة، عبارة عن مجموعة من **المستقبلات** التي تشتغل في هذه اللحظة"[1].

وعلى هذا الأساس **تكون عبارتان متكافئتين تكافؤًا معرفيًا إذا كان الإقرار بهما أو إنكارهما يقوم على نفس المثيرات.** ومن هنا فإننا نقدم **المعنى المثير** للعبارة عندما نصف هذه المثيرات التي تتحكم في الإقرار والإنكار. **غير أن المستقبلات الحسية نفسها تظل موزعة بين الجهاز العصبي والمثيرات الخارجية. فما هو المعيار الذي يجعلنا نتعرف على حصول تكافؤ بناء على هذه التحديدات؟**

لقد حضرت التأثيرات السلوكية في فكر كواين خصوصًا ما أثاره من قضايا ومشكلات تتعلق بالترجمة حيث وظف المعطيات العلمية للسلوكية بخصوص الدلالة وكيّفها مع الضوابط المنطقية[2]. ويرى جيبسن Gibson أن كواين قد جمع بين نزعته الفيزيائية وسلوكيته عندما اعتبر أن الأحوال والوقائع الذهنية التي لا يمكن ردها إلى السلوك لا يمكن أن تفسر بالسلوك. ومن هنا استعان بدعواه القاضية بامتناع تحديد النظرية العلمية التي لعبت دورًا كبيرًا في فحص الدلالة السلوكية.

1 Quine, (1960), *Word and Object*, ch. 1 "Meaning and translation", op. cit.

2 Quine, 1992, *Pursuit of the Truth*, revised ed., p. 3.

وقد أجرى عليها تعديلات تتفق مع النظرية المنطقية. وهو يعترف أنه في النظرية العلمية، مثلًا، لا نجد أن العبارة العلمية تكون مستوفية لاستيعاب المعنى التجريبي. فكما أن العالم لا يستطيع أن يعين داخل النظرية ما الفرضية التي ينبغي له أن يراجعها إلا في ضوء النظرية المأخوذة في شموليتها، فكذلك المترجم الجذري لا يستطيع التحقق من ترجمته إلا وفق التعرف على الظروف الإثارية برمّتها.

وإذا فحصنا لفظة لقوم يتكلمون لسانًا لم يسبق أن تفاعل ولسان قوم آخرين، ونطق أحد بعبارة "غافاغاي" فإن المترجم لا يستطيع أن يصف هذا السلوك الكلامي داخل لغته إلا في حضور المثير (هنا أرنب) غير أن المترجم لا يحدد، بل لا يستطيع أن يحدد معنى "غافاغاي" عند نقلها إلى لسانه بوضع "أرنب" كمقابل لها.

وهذا راجع إلى امتناع تمحيص الإحالة فهو لا يستطيع أن يبين بم تقترن "غافاغاي": هل تقترن "بالأرنب" الذي يجري أم بـ "الأرنب" كلفظ كلي أم "بجزء من الأرنب" الماثل أمام الشخص الذي يتلفظ بـ "غافاغاي" ... إلخ.

لقد أثبت "كواين" أنه لا وجود **لوقائع فيزيقية** تخص الترجمة بحيث يمكن أن تضبط بواسطتها المعاني المثيرة وكيفية عبورها إلى ما أسماه **المستقبلات الحسية**. فإذا كانت الكراسة الوحيدة للترجمة غير محددة بواسطة الوقائع المقترنة بالمعاني المثيرة، فلا وجود، إذن، لوقائع مادية تتفق فيها الكراسة بالتحديد وبكيفية صحيحة بالمعنى المعرفي للعبارات الأجنبية. هكذا تقود دعوى امتناع تحدد الترجمة إلى **نسبية طبعت موقف كواين من المعرفة**.

أما موقف تشومسكي فينتمي إلى **النزعة الذهنية** التي يعاديها كواين، فتشومسكي لا يماثل بين دراسة اللغة ودراسة الفكر؛ بل يعتبر **أن العقل يستقل ببنيات ذهنية هي أساس امتلاك الإنسان للغة**:

"بالنسبة لي- يقول تشومسكي- أتصور اللسانيات كفرع من **النفسانيات** التي تركز اهتمامها وتحصره في مجال معرفي مخصوص، وفي جانب من الفكر أعني **ملكة اللغة**. وذلك لأن النفسانيات بالمعنى الذي أفهمه هنا، يجب أن تهتم- على أقل تقدير- بالقدرات الإنسانية على الفعل و[تقدم على] تفسير التجربة، وكذا البنيات الذهنية التحتية لهذه القدرات ولممارستها؛ عليها أن تهتم بكيفية أكثر عمقًا بالقدرة الأصلية وبالبنيات التي تقتضيها هذه القدرة على بناء **البنيات الذهنية**"[1].

ومع ذلك، ومهما يكن من أمر افتراض تشومسكي **لوجود بنيات ذهنية، فإنه يذهب إلى حدِّ الالتزام أنطولوجيا بوجود ذوات ذهنية مستقلة عن العالم الواقعي**. وهذا يمكن أن يجعلنا نقول بوجود تقارب بينه وكواين:

"سوف أستعمل- يصرح تشومسكي- إذن، مفاهيم من قبيل الفكر والتمثل الذهني والحساب... إلخ؛ ولكنني لن أبرح تناولها في مستوى التخصيص caracterization المجرد لخصائص بعض الآليات الفيزيقية التي نكاد نجهل عنها كل شيء؛ **فلا يرتبط ما أدعيه بوجود أي شحنة أنطولوجية إضافية لهذه الحالات** (...).

1 Chomsky, 1980, *Règles et représentations*, Trad. Fran. Alain Kihm ed. Flammarion, p. 7 ff.

وهكذا فإن البحث، مأخوذًا على هذا النحو، سيتعلق بالتأكيد بدراسة الفكر كما أفهم ذلك منه. غير أنه لا يؤدي، مع ذلك، إلى الالتزام بوجود ذوات معينة غريبة عن عالمنا المادي"[1].

غير أن بوتنام يعتبر أن **الدعوى القائلة بأن "الدماغ يخَزّن الصور" دعوى معقولة**. ومن هنا يلزم بأنه بالنسبة لكل نظرية لا يقوم الدماغ سوى بشيء أشبه ما يكون "**بالحوسبة**" calculation. غير أن تشومسكي يعترض على خصوم أسطورة المتحف قائلًا:

" أنْ تكون الموضوعات الذهنية الداخلية مسمّاة بواسطة الملفوظات، فذلك لا يغير في الأمر أي شيء. فلو افترضنا أنها لا تقوم سوى بإخفاء الثغرات التي تعتري فهمنا؛ لأن اكتساب اللغة والتمكن منها ينبغي أن يُفسر بناء على تجربتنا؛ فيجب أن يتم تعميم هذه الفرضية بنفس الكيفية، لكي تسري، بصورة عامة، على كل الموضوعات الذهنية الداخلية المسماة منها بواسطة الألفاظ، وغير المسمّاة"[2].

وينتهي تشومسكي في إبطال فرضية تفسير كل المعطيات اللسانية بما فيها الموضوعات الذهنية، بناء على تجربتنا ليثبت صحة أسطورة المتحف:

1 Lear, Jonathan, "Going Native" Daedalus, automne, 1978, pp. 177-178 seegain : R. Rorty, Mai 1977 "Language, philosophy and the Death of Meaning", the Machette Lecture, Brookly colledge cit dans chomsky, op. cit., p. 241.

2 Chomsky,, *Règles et représentations*, p. 9.

" يبدو أننا نتوفر، إذن، على حجة ضد **التمثلات الذهنية** عمومًا، وهي نتيجة سترضي على ما يبدو، كثيرًا من خصوم أسطورة المتحف، خصوصًا كواين وفتغنشتاين على الأقل"[1].

يعي تشومسكي وعيًا تامًا الخلفية النظرية التي حملت كواين على الخصوص إلى الاعتراض على وجود الموضوعات الذهنية أو النظرية:

"فكما يبدو بوضوح من خلال الإحالات، نجد أن كل ما سبق يَلزم عن دعوى كواين المتعلقة بامتناع تحدد الترجمة التي نوقشت بكيفية مستيقظة في العقدين الأخيرين. وهي دعوى لا تنطبق، حسب ما أكد عليه كواين نفسه، على [امتناع] الترجمات بين اللغات فحسب، بل **حتى داخل اللغة الواحدة**.

كما أنها لا تنطبق على مشكلات المعنى فحسب، بل إنها تنطبق على كل قضية نظرية لغوية نحو: فرضية الحدود الموجودة بين المركَّبات التي تؤدي إلى القول بأنه في العبارة "قرأ الرجل الذي صادفته الكتاب الذي ألّفته" "فالمتواليتان" قرأ الرجل الذي صادفته" و"الكتاب الذي ألفته" تمثلان مركبين، فضلًا عن كونهما مترابطتين بنفس الروابط في حين أن المتوالية "صادفته الكتاب الذي ألفته" ليست كذلك.

فلا وجود حسب كواين **لواقعة مادية** تحل المشكلة وفي حالات من هذا النوع (...) فلا معنى، البتة، لمحاولتنا بناء نظرية للفكر واللغة تسعى إلى تقديم تقرير يفيد أن قواعد النحو تقسم المركبات بهذه الكيفية أو تلك داخل **التمثلات الذهنية**"[2].

1 Chomsky,, *Règles et représentations*, p. 16.

2 Ibid., pp. 17 - 18.

يتضح لنا الآن مدى الاختلاف النظري بين تشومسكي وكواين بخصوص اللسانيات والفلسفة والقضايا الدلالية المرتبطة بدعوى هذا الأخير بخصوص امتناع تحدد الترجمة.

نخلص، الآن إلى تقرير سرّ الاختلاف الجوهري بين تشومسكي وكواين: إنه اختلاف يعود إلى الأطر المرجعية لكل منهما. وما دام أمر الدلالة والترجمة هو الذي يعنينا، في هذا الفصل، فيكفي أن نستنتج بأن اعتراض كواين على **الدلالة الذهنية** هو الذي حافظ على التباين الحاصل بين وجهة نظره وعقلانية تشومسكي. ويظهر أن الخوض في دعوى امتناع تحدد الترجمة التي ناقشها هذا الأخير تكشف عن نقط اختلاف أخرى تتعدى مجال الدلالة اللسانية إلى مجال المعرفة عمومًا.

يأخذ كواين بالنظرية اللسانية الدلالية القائمة على السلوك الملاحظ والتجربة ويُغَذِّي هذه النظرية بمعطيات المنطق، في مقابل تشومسكي الذي يرى أنه "على العموم، فنحن نقدم هذا التحليل لأننا نعتبر أن الوقائع لا تكذِّب التحليل المنافس. وهو أمر صحيح، غير أنه ليس دقيقًا على الإطلاق. ألا يكفي أن يظهر هذا التفسير الأخير كأحسن تفسير؟

وإذا كان الحال كذلك بالتمام وفي غياب نظرية أخرى أكثر اتِّساقا، واعتبارًا للنجاحات المحصل عليها على الأقل بكيفية جزئية، فسأستمر في افتراض بأننا نكون على صواب في تحليل المعرفة اللسانية **وتفسير حالاتها الخاصة بحدود البنيات الذهنية للقواعد والتمثيلات**، وسأتشبّث بافتراضي القاضي بأن استعداداتنا للكلام تقوم على هذه البنيات الذهنية".

هكذا يتبين لنا أن النقد المتبادل بين كواين وتشومسكي يساعد على فهم مدى تشبث كواين بنزعته السلوكية وإن حاول أن يكيفها مع معطيات النزعة العقلية، كما أن رفضه لأسطورة المتحف تضعه في سياق التجريبية المعتدلة وتخصُّه بكونه يمثل منعطفًا لما بعد الفلسفة التحليلية.

خلاصة تركيبية

بادئ ذي بدءٍ، نشير إلى أن هذه الخلاصة التركيبية تسعى إلى استجماع أمهات النتائج التي توصلنا إليها في الأجزاء الثلاثة من هذا العمل، كما نشير إلى أننا لم نقم - رغم ما أسهمنا به بتقديمنا لدراسة متكاملة لفكر كواين- سوى برمي حجر في ماء راكد، فلسنا ندعي الإحاطة التامة بمتن هذا الفيلسوف: وكل ما نسعد به هو أننا قدمنا للمكتبة العربية تعريفًا بمفكر صار يستأثر ببالغ الاهتمام سواء من قبل الفلاسفة القارين.

لقد دفعنا إلى الاهتمام بفكر كواين طابع شموليته التي تأخذ بأسباب العقل والتجربة في تحقيق وتنسيق عزّ أن نجد لهما نظيرًا، وفي أبدعية تجمع بين التمنطق والتفلسف، فقد تعددت دعاواه الدلالية -المنطقية وتنوعت طروحاته الفكرية-الفلسفية، وهي تتعلق بما قدمه من رؤى ووجهات نظر في حقول متشعبة من المعرفة تتصل بمجالات فلسفة اللغة، وفلسفة المنطق، وفلسفة العلم، والأنطولوجيا والترجمة...إلخ.؛.

وقد تبين لنا ذلك من خلال استشفاف أبرز أطروحاته الفلسفية - المنطقية الموزعة على مختلف مجالات الفكر البشري حيث ركزنا على مكانة

نظرية الدلالة وفلسفة المنطق في فكره، وقد مكنتنا مطالعاتنا المتكررة لأعماله من الانتباه إلى أن مدار فلسفته إنما هو على علم الدلالة، بل إن فلسفته وما شملت من دعاوى إنما هي **فلسفة دلالية منطقية** استندت إلى نتائج بحوثه في حقل الدلاليات؛ وعلى هذا الاساس اتخذتُ نظرية الدلالة وفلسفة المنطق وفلسفة العلم نموذجًا لفكر كواين وفلسفته.

لقد أنتجت اشتغالات كواين في مجال الدلالة ومراجعته النقدية لمفاهيم نظرية المعنى ونظرية الإحالة دعاوى اتخذها كواين سندًا لمواقفه الفلسفية سواء في مجال المنطقيات أو في مجال فلسفة العلم والمعرفة؛ ولهذا **انبنت أبرز أطروحاته الفلسفية كدعوى امتناع تحدد الترجمة، ودعوى النسبية الأنطولوجية، ودعوى الشمولية أو التجريبية المعتدلة، على نظريته الدلالية وفلسفته المنطقية.**

كان لابد، إذن، من أن نظفر بإشكالية رئيسة في فكر كواين؛ وهكذا تبين لنا، بعد الاطلاع على جُماع أفكاره الفلسفية ومواقفه النظرية، أن الثوابت التي قامت عليها **فلسفته ثوابت تجريبية وسلوكية تأخذ بموضوعيةٍ وواقعيةٍ نسبيتين**. وهذا ما طبع فلسفته، في جوهرها، بطابع **التجريبية المعتدلة**. وقد سعينا إلى معالجة الإشكالات الرئيسة وكنا نضع نصب أعيننا التساؤلات التالية:

- إلى أي مدى يمكن مجاوزة معتقدات النزعة التجريبية المنطقية دون التفريط في الأسس التجريبية؟
- وإذا كانت النزعة التجريبية قد أخذت بالنظرية الدلالية التي تفرق

بين القضايا التحليلية والقضايا التركيبية (أي بين المضمون التجريبي والصورة المنطقية) لتضم بذلك البرنامج الصوري (المنطق الرمزي) إلى النزعة الاختبارية (التجريبية المنطقية):

- فكيف أمكن لكواين-وهو المتشبث بنزعته التجريبية- أن يقوض أقوى الأركان التي قامت عليها التجريبية المنطقية بهدم نظرية المعنى، وإجراء مراجعة نقدية لمفاهيم نظرية الإحالة، ليظل محافظًا، مع ذلك، على نزعته التجريبية؟
- أليس من الصعب بمكان أن ينفلت كواين من قبضة المنطقيات ذات النزعة المفهومية ليبطل المنطق الموجه، ويقول بامتناع تحدد الإحالة لينتهي إلى **نسبية تجريبية**؟
- كيف برر كواين النسبية في مجال فلسفة العلم، وهو الذي يدعي شمولية النظرية العلمية، بل ويأخذ بشمولية تقوم على نزعة تجريبية معتدلة؟
- كيف تجنب كواين السقوط في نزعة شكية كان من الممكن أن تقود إليها رؤيته الأنطولوجية النسبية، وامتناع تحدد الترجمة...

ذلك ما حدا بنا إلى ركوب مطيّة البحث في المشكلات المنطقية والدلالية والفلسفية التي باشرها كواين الذي شهد له معاصروه أمثال رورتي بكونه فيلسوف **مابعد الفلسفة التجريبية**، ونحن نروم توصيف فلسفته **بالتجريبية المعتدلة**، أو **ما بعد النزعة التحليلية**. مع الأخذ بكونه لم يتخلّ عن تجريبيته وطبيعانيته أو فيزيائيانيته.

لقد أفردنا لفلسفة كواين ثلاثة أجزاء متكاملة تقتضي موالاة قراءتها على التوالي لتحصيل صورة متّسقة عن فلسفته وفكره:

- عالجنا في الجزء: **الدلاليات وفلسفة اللغة** الذي يتولى بسط الأطروحات الدلالية، وأثرها في نقد الوضعية المنطقية، وفي بلورة فلسفة لغوية تستند إليها دعاوى كواين المنطقية والفلسفية؛
- عقدنا الجزء الثاني **للدلاليات وفلسفة المنطق**، وغايتنا بسط الخلفية الفلسفية الدلالية الثاوية وراء دعاوى كواين المنطقية؛
- تناولنا في الجزء الثالث **الدلاليات وفلسفة العلم**، حيث رمنا فيه أن نقف، من خلال فحص علاقة الدلاليات عند كواين بفلسفة العلم عموما، على طروحاته الشهيرة من **قبيل النسبية الأنطولوجية، وطبيعانية المعرفة أو الإيبيستيمولوجيا المطبوعة، ونظرية امتناع تحدد الترجمة**.

لقد واجهتنا صعوبات جمّة ونحن نسعى إلى فهم فلسفة كواين. تكمن هذه الصعوبات في أن الدراسات والبحوث حول فكره موزعة ومتشعبة تتفرق في مجالات معرفية عدة من فلسفة المنطق واللسانيات وفلسفة اللغة وفلسفة العلم...فكان الأمر يقتضي منا بذل الجهد في ضم هذه الأسانيد تحت دعاوى رئيسة اختص بها كواين، ثم البحث عن الحجج والأدلة التي اعتمدها في بناء نموذج نظريته في الدلالة وفلسفة المنطق.

وهناك صعوبة داخلية تأتت من طبيعة فكر كواين ذاته، فهو **فكر مفارقات**، فكر متشعب ومتداخل حتى أن البعض من دارسيه ادعى أنه

يثير من القضايا، ومن المسائل أكثر مما يسهم في حلها؛ ومع ذلك، ففكر كواين يتسم بمزيّة تتمثل في كونه **فكرًا نقديًا** اقتحمنا مجال دعاويه الدلالية والمنطقية، ولم نتمكن من عزلها عن خلفيتها الفلسفية إلا بعد لأْيٍ؛ ذلك أن دعاويه يشتبك بعضها ببعض وتتداخل قضاياها أيّما تداخل.

لم يكن بدعًا من الأمر أن نعتبر **كواين فيلسوف ما بعد الفلسفة التحليلية**؛ فقد خلقت انتقاداته الصارخة للمعتقدات التي قامت عليها النزعة التجريبية المنطقية اضطرابًا منهجيًا وتخبطًا معرفيًا وقلقًا فلسفيًا لدى المناطقة الوضعيين التجريبيين وعلى رأسهم كارناب.

لقد قام كواين في إبيستيمولوجيته الطبيعانية بمراجعته أسس المعرفة، كما ساءل حدود النظرية العلمية، وساهم في تجديد النظر في مبحث الوجود بطروحاته الشهيرة حول النسبية الأنطولوجية، وامتناع تحدد الترجمة، استطاع أن يقوم بخلخلة ثوابت الفلسفة الوضعية المنطقية بالتحديد. فلا شك أن الموجة الجديدة مع كلٍّ من دونالد ديفيدسن وهيلاري بوتنام، ورتشارد رورتي، كانت تدور- من قريب أو من بعيد- في فلك فلسفة كواين.

وإذا كنا قد اعتبرنا أن بؤرة فكر كواين تنحصر في معطياته النقدية التي تنبع بدورها من حقل الدلاليات حيث دحض ثنائية التحليل والتركيب، وأبطل وجود الذوات المجردة، وقوّض إمكانية فصل الصورة المنطقية عن المحتوى التجريبي لامتناع تحدد المعنى، وامتناع تمحيص الإحالة؛ فذلك لأن كواين قد أسند كل طروحاته سواء في فلسفة المنطق، أو في فلسفة العلم، وبالخصوص في الإبستيمولوجيا المطبوعة، أو بصورة عامة في طبيعانية المعرفة البشرية بالدعاوى الدلالية التي فحصناها في الجزء الأول من هذا العمل.

ولا ينبغي أن ننسى مساهمات كواين بنزعته الطبيعية في نقل الفلسفة من الدائرة الخارجة عن العلم، لتغدو جزءًا لا يتجزأ من المعرفة البشرية المتولدة من تفاعل شبكتنا العصبية مع محيطها الخارجي مما جعل كواين ينخرط بقوة فيما يشتغل به مجال فلسفة العقل Philosophy of Mind.

يشير تصور كواين للفلسفة بوصفها استمرارًا للعلم إلى إمكانية انتقال التساؤلات الفلسفية إلى حقل العلم، إذ نجده لا يعترف بأي فلسفة أولى، فالفلسفة غدت عنده فصلًا من العلم يختلف عن باقي الفصول بدرجته من العموم والتجريد.

وهذا أقرب من فلسفة النورولوجيا التي صارت تتولى الإجابة على الأسئلة الفلسفية التقليدية التي أدمن عليها الفلاسفة دون أن يمدهم العلم بمعطيات قد تمكنهم من الخروج من التجريد المفرط إلى الحقائق التي أضحت تمدنا بها فلسفة علم الأعصاب neurologyphilosophy. وهي مجال فلسفي حديث العهد دشنته باتريشيا سميث تشورشلاند في كتابها الشهير: **الفلسفة العصبية: نحو علم موحد للعقل/الدماغ** حيث بينت أن مجال الفلسفة العصبية يهدف إلى استكشاف علم الأعصاب للأسئلة الفلسفية التقليدية من خلال معطيات علم الأعصاب وفلسفة العقل[1].

لقد بات معلومًا لدينا أن حقل فلسفة علم الأعصاب قد خطا خطوات جدّ أساسية وحاسمة في جملة من المسائل أفادت منها الفلسفة وسائر المعارف البشرية، واستُثْمرت كثير من نتائجها في مجال الذكاء الاصطناعي؛

1 Churchland, Patricia Smith, *Neuro philosophy: Toward a Unified Science of Mind-Brain*, Bradford Books, Cambridge, Mass./London, MIT Press, 1986.

ومن الجدير بالإشارة، أن فلسفة كواين عُنِيت بالمدخلات الحسية للمعرفة sensory inputs مما قادها إلى تقصي شروط إمكان المعرفة، وإلى الأساس الفيزيائي لفهم الواقع المعطى.

وهكذا، يمكن أن نجد لكواين موطئ قدم في نطاق ما تقتضيه رؤيته لفلسفة العلم والمعرفة من الارتكاز على علم النورولوجيا، وعلم العقل؛ فمع أنه لم يخض بصورة مدققة في موضوعات علم النورولوجيا، إلا أنه بنزعته الطبيعانية التي تعتبر أن **الأحوال الذهنية للإنسان هي أحواله الفيزيقية** mental states are physical states -وهنا تظهر نزعته التجريبية صريحة وفصيحة-؛ نجده يتقاطع مع جملة من المسائل التي تطرقها علوم العقل والنورولوجيا.

وفيما يلي، نورد بعض ما انفردت به المقاربة الفلسفية لكواين بخصوص العقل والجسم في وحدتهما وترابطهما في نطاق نزعة كواين الفيزيائية.

يأخذ كواين بمبدأ **وحدة وترابط الجسم والدماغ** Mind-Body connection ومؤداه أن كواين يعتقد أنه **ما من تغير ذهني إلا ويكون تابعًا للتغير الفيزيقي**، كما يعتقد أن وعي الشخص إنما يتحدد في **جهازه العصبي** الذي يتفاعل به مع الواقع الفيزيقي.

وأما عن نزعة كواين الفيزيائية phisicalism فمفادها أن كواين يعتنق هذه النزعة لإيمانه بأن الفيزياء هي العلم الأساس، وأن كل معارفنا الحسية تقوم عليه، كما أن أي تغير يحصل في هذا العلم يستتبع تحولًا في إدراكنا للعالم الخارجي، فليست ثمة وقائع ذهنية منفصلة عن المعطيات الفيزيائية.

ويبقى علينا أن نشير إلى بعض تداخلات فكر كواين مع النورولوجيا وفلسفة العقل حيث نجده يتقاطع نسبيًا معهما؛ وذلك حين نتعاطى من منطلقات نورولوجية مع مقاربة كواين لطبيعانية المعرفة التي ذهب فيها مذهبًا فريدًا تمثل في الإبيستيمولوجيا المطبوعة.

وقد مرّ بنا أن كواين قد بلور هذه النظرية التي تفيد أن معرفة كيف يصوغ العلماء نظرياتهم، يقتضي أن نعتبر **الإبيستيمولوجيا جزءًا من العلم الطبيعي**؛ وبهذا جعل **العلم طبيعانيًا** (وحدة العلم)، وجاء بأطروحة الإبيبستيمولوجيا المطبوعة epistemology naturalized كما ادعى أن المعرفة بشموليتها لا تخرج عن العلم الطبيعي.

ولما كان كواين قد ركز على **وحدة العقل والجسم**، وبنى على أساس هذا المعطى طبيعانية المعرفة، فهو يتقاطع مع النورولوجيا وفلسفة العقل، وعلم سيكولوجيا الدّماغ وتفاعلاته الحية مع محيطه الخارجي.

لقد مرّ بنا أن كواين قد عزز **بنزعته السلوكية** behaviorism دعاواه الإبيستيمولوجية والأنطولوجية؛ لما لها من حجيّة في إثبات **العلاقة الشرطية بين المثيرات الخارجية واستجابات جهازنا العصبي**. وهذا يقوم دليلًا على نزعته التجريبية التي لا تأخذ سوى بالمعطيات القابلة للملاحظة.

بقي لنا أن نستعرض ما خلصنا إليه من نتائج نروم من خلالها أن نفتح أفق البحث المستقبلي لمن سيهتم بفكر هذا الفيلسوف والمنطقي الذي شهده القرن الماضي، وشهد له مجايلوه من المناطقة والفلاسفة الكبار:

- نثر كواين بفكره النقدي كثيرًا من الشكوك في العديد من المسائل كادت أن تعد من المسلمات التي لا يتسلل إليها الشك، ولا يساور دعاتها أدنى ارتياب في صحتها وسلامتها حتى أنهم بنوا عليها صروحهم الفلسفية، ونخص بالذكر هنا الفلاسفة الوضعيين المناطقة التجريبيين؛ وذلك في أجواء أضحى فيها **التحليل المنطقي** فيها **حَكَمًا على الفلسفة ومسائلها** بحيث اعتمده مناطقة حلقة فيينا وعلى رأسهم موريس شليك، ودائرة براغ وعلى رأسهم رودولف كارناب Carnap وكورت غودل Gödel وأوطو نوراث Neurath وفريديريك فايسمن Waisman، وإلى جانبهم جمعية الفلسفة التجريبية وعلى رأسها كارل همبل Hempel وهانز رايشنباخ Reichenbach؛

- لم يسلِّم كواين بمفهوم المعنى، بل اعتبره- في حدِّ ذاته- سببًا رئيسًا في كثير من تهافت فلاسفة اللغة وفلاسفة العلوم، بل إنه لم يعترف بالتفريق الوضعي بين القضايا ذات المعنى والقضايا الخالية من المعنى؛ وذلك لأنه لم يصادر أصلًا على وجود المعنى.

- لقد أجهز كواين على ثنائية التحليل والتركيب التي شكلت حجر أساس النزعة التجريبية المنطقية، فقد آمن الوضعيون المناطقة بالتفريق بين العبارات التحليلية الصادقة إما بمعناها، أو تبعًا للقواعد اللغوية، أو لصدقها المنطقي...؛ والعبارات التركيبية التي يستند صدقها على التجربة؛ وهذا التفريق جعلهم يختزلون العلم في القضايا التجريبية التي تنتمي للعلم الطبيعي، والقضايا المنطقية الرياضية، أي ما اعتبروه من صنف القضايا التحليلية. وبرفعه لهذا التفريق يكون كواين قد حقق منعطفا نقديًا من الفلسفة التحليلية

التي نشطت منذ الثلاثينيات من القرن الماضي، إلى ما نعتناه بـ: ما بعد الفلسفة التحليلية.

- تعرض كواين إلى مفاهيم رسخ الاعتقاد فيها من قِبَل الفلاسفة، وقام بخلخلتها لينتهي إلى إثبات غموضها والتباسها، ومن بين هذه المفاهيم: 'المعرفة' و'الاعتقاد' و'الضرورة' و'التجربة'؛ وقد وقف طويلًا عند مفهوم المعرفة[1] ليبرز أننا لا نتوفر على حدود معينة، ولا على شروط إمكانٍ محددة للمعرفة، ويبقى المُعوّل عليه هو أن نعتبر المعرفة **فصلًا من فصول العلم الطبيعي** حيث يتفاعل جهازنا العصبي مع العالم الخارجي؛

- اتخذ كواين مسافة نقدية من المنطق ذاته، **فلم يحكِّمه إلا بعد صقله وفحصه في ضوء المقاربة النقدية**؛ فعلى سبيل المثال- وكما مرّبنا في الجزء الثاني من هذا العمل- فقد شهدنا أن كواين قد اعترض على منطق الجهات لما يقتضيه من خلفية ميتافيزيقية تتجسد في النزعة الماهوية essentialism.

- تقضي النزعة الجوهرية بأن لموضوع ما صفة ذاتية تخصُّه في ذاته ويمتنع تصوره بدونها. بيد أن موقف كواين من المنطق **موقف واقعي**، وَمِنْ ثَمَّ فهو يعتبر **أن المنطق يقبل المراجعة والحقائق المنطقية لا تستند عنده إلى أساس الدلالة المفهومية** (التحليلية، الترادف، المعنى، الضرورة،... إلخ) بل إنها تستند إلى **الدلالة الماصدقية** التي استفاد فيها كواين من أعمال كلٍّ من برتراند رسل وألفرد تارسكي.

1 Quine, "Relativism and Absolutism" *The Monist*, 67: 293-96.

ولهذا السبب فإن المذهب الجوهري الذي يحضر في التفريق بين **جهة الحقيقة** modality ***de re*** **وجهة الاعتبار** modality ***de dicto*** يرتفع بدعوى أن **الضرورة لا تُحمل على الموضوع، بل إنها توجد في كيفية تكلُّمنا عن الأشياء**. ومن هنا يمتنع أن نسند للأشياء صفات جوهرية تحكمها **نزعة قبلية ميتافيزيقية**؛ ولذلك انتهى كواين إلى دعوى **حياد المنطق** كما سبق أن بيَّناه (راجع الجزء الثاني، الفصل الثاني: **مسألة حياد المنطق**).

وقد حدد هاملين[1] العلاقات القائمة بين القبلي والضروري من جهة، والحقيقي والاعتباري من جهة أخرى:

"هناك، إذن، معنى واضح نجد بمقتضاه أنه كلما كانت العبارة صادقة صدقًا قبليًا فإنها تكون صادقة بالضرورة، ولا يمكنها إلا أن تكون صادقة (...) إن الضرورة المتضمنة هنا هي ما كان يسميه المناطقة الوسطويون **الضرورة من جهة الحقيقة** مقابل الضرورة من **جهة الاعتبار**".

وذلك بناء على مقولتي القبلي والبعدي *a priori* and *a posteriori* باعتبار التحديد الذي أعطي لهما والذي ينحدر إلينا من القرون الوسطى حيث يفيد **القبلي** ما هو مستقل عن التجربة، وهو يرتبط بما هو صادق بالضرورة ويكون بالتالي يقينيًا، وحيث يفيد البعدي ما هو متوقف صدقُه على التجربة.

لكن كواين لم يسلم بهذه المعطيات؛ لأنه كان أقل حماسًا إزاء التمييز بين **جهة الحقيقة وجهة الاعتبار**، وقد أبطل هذا التمييز انطلاقًا من إجهازه

1 Hamlyn, D.W.: *The Theory of Language*, *In Modern Introduction to philosophy general,* éd. D.J.O'Conner, 1971, Published by Mc Millan Press. LTD. Ch. 9 § (ahgk), p. 253.

على **منطق الجهات**، وكان إبطاله للضرورة ناتجًا عن عدائه للدلالة المفهومية والنزعة الماهوية الميتافزيقية[1].

- رفض كواين أن تشكل **فلسفة أولى** خلفية لمعرفتنا بالعالم، بل إنه جعل المعرفة ذاتها مسألة من مسائل العلم الطبيعي، وفصلًا من فصول السيكولوجيا التجريبية أو حتى في النورولوجيا، فهل يكرّ ذلك على فكره فيخرج من دائرة الفلاسفة؟ الواقع أنه لم يغادر البتة فلسفته الوضعية التجريبية قيد أُنملة رغم خصوماته النقدية مع المناطقة التجريبيين.
- الحق أن كواين لم يغادر تربة الفلسفة بحقّ، فالأسئلة الفلسفية عنده ليست من جنس الأسئلة العلمية، فهي تفوقها بعموميتها وتجريديتها التي لا تجد دائمًا موقعها من الإعراب في نطاق الملاحظة التجريبية. ولعل هذا الوضع هو ما حدا بفتغنشتاين إلى التراجع نسبيًا عن كثير من أفكاره في التراكتاتوس حيث انعطف من **رسالته المنطقية الفلسفية** إلى **بحوثه الفلسفية** ليغادر كثيرًا من طروحاته التي تحمّس لها، ونهل منها العديد من فلاسفة التجريبيين المناطقة.
- رغم قول كواين بامتناع تحدد النظرية العلمية، فإنه **لم ينخرط في أي نزعة شكية** لقوله بأن العلم يقود إلى استشفاف الواقع والتنبؤ بمستقبله، فعلى الرغم من كون نظريتنا العلمية لا تسلم من الخطأ، فإنها تبقى مقاربة ممكنة لا يمكن أن ندعي معها بأنها لا تتوافق مع

1 Quine,*Ways of Paradox*, Harvard University Press,Cambridge Massashusetts and London, England

واقعها بصورة مطلقة[1]. وفي هذا ما يدل على البراء من كل نزعة شكية.

- يكمن البديل الفلسفي عند كواين في اعتبار **التجربة محكًا لكل معرفة ممكنة** مع مراعاة كون **معارفنا إنما ترتد إلى التجربة وتحاكم في محكمتها**؛ فهو تجريبي يؤمن **بوحدة العلم الفيزيائي** بالنظر لنزعته الفيزيائية. ومع ذلك، فإنه يعتبر أن كل حمولة معرفية إنما تعطانا من خلال وبواسطة اللغة.

- لقد مرّ بنا أن كواين يعتبر اكتساب اللغة فاعلية اجتماعية، حيث يتلقى الطفل اللغة من محيطه الخارجي، ويبقى أن نجسّ من خلال اللغة مدى تحصيل المعطيات من المثيرات: إنها نزعة سلوكية: كما مرّ بنا أن كواين **بنزعته السلوكية** behaviorism أسند دعاواه الإبيستيمولوجية والأنطولوجية، لما لهذه النزعة من حجيّة في إثبات العلاقة الشرطية بين المثيرات الخارجية واستجابات جهازنا العصبي.

- لقد غير كواين المنظور الفلسفي التقليدي للأنطولوجيا حيث جاء **بمعيار الالتزام الأنطولوجي** الذي أفضى إلى دعوى رئيسة تفرد بها بخصوص موقفه من الأنطولوجيا ألا وهي **دعوى النسبية الأنطولوجية**. فقد خلخل التصور الدلالي للأسوار؛ حيث بيّن أننا حين نتمعن في تأويلات العبارة غير المحصورة **ك(س)** التي تسمح بإسناد مختلف القيم الممكنة للمتغير "س"، فسوف يوجد، على الأقل، تأويل واحد تصدق العبارة غير المحصورة بالنسبة إليه. وهذا ما جعل كواين يعتقد أن الوجود إنما يكون **قيمة صدقية لمتغير ما**.

1 Quine, "The scope and Language of science", *British Journal of Philosophy of Science;* 8: 1-17 reprinted in Quine 1966,

- اعتبر كواين أن النظرية العلمية ذاتها تلتزم أنطولوجيا بما تعبر عنه قضاياها؛ ولذلك، تصدّى إلى السور الوجودي الذي يخلق "متاعب كثيرة" ليعطيه دلالة تشدّه إلى شعارين رفعهما وهما: "الموجود هو القيمة الصدقية للمتغيّر"؛ و"لا ذاتية من غير هوية"؛ وهكذا اعتبر كواين أن عملية التسوير الوجودي تفترض وجود موضوعات من صنف محدّد تعني، فقط، أن العبارة غير المحصورة التي تقع تحت السور تصدق على بعض الموضوعات من هذا الصنف ولا تصدق على صنف آخر.

- اعتبر كواين أن الفلسفة استمرار للعلم منتصرًا لدعوى تفرد بها وما تزال تثير كثيرًا من الجدال في الفلسفة المعاصرة ويتعلق الأمر **بالإبستيمولوجيا المطبوعة** أو بطبيعانية المعرفة؛ كما أثرى الفلسفة المعاصرة برؤيته **الأنطولوجية النسبية** الفريدة التي أقامها معطيات فلسفته في اللغة؛ هذا فضلًا عن نظريته في امتناع تحدد الترجمة وامتناع تحديد النظرية العلمية.

- لقد ساهمت فلسفة كواين مساهمة فعلية في المراجعات النقدية للمنطق المعاصر، كما أسهمت وأثرت مجال **فلسفة العقل** بما قدمته من معطيات ذات منحى مادي نابع من رؤيته الطبيعانية للعقل.

وأخيرًا، آمل أن يعتمد من سيهتم من الباحثين في فكر كواين **رابط المتن** المُوالي ليطلعوا على الأعمال الفلسفية والمنطقية لهذا الفيلسوف الموسوعي، وليحيطوا علمًا بما يفتح دونهم رحاب الفكر ليلقوا بالسهم إلى أبعد مما رميناه تقصيًا وتحريًا وافتحاصًا وانتقادًا.

والله نسأل السداد والتوفيق.

- **ملحوظة**: بالنظر إلى أهمية الأعمال التي أصدرها كواين، والتي اعتمدنا جُلّها في الأجزاء الثلاثة من اشتغالنا على فكر كواين، نورد **المتن الكوايني** برُمّته المكون من جميع أعمال كواين بما فيها المقالات والأبحاث والمجلات والملخصات والمخطوطات غير المنشورة والمحاضرات والملاحظات النقدية، فضلًا عن الكتب والمؤلفات نقلًا عن الموسوعة الفلسفية:

Satndford Encyclopedia of Philosophy:

https://plato.stanford.edu/entries/quine /

التي أحالت على ابن كواين دوغلص بوينطن كواين Douglas Boynton Quine الذي اعتمد ما جمّعه من أعمال أبيه في متن مرجعي:

https://www.wvquine.org/wvq-publish.html

قائمة المصادر المراجع

أولًا: المراجع العربية

- إسماعيل، صلاح، **فلسفة اللغة والمنطق، دراسة في فلسفة كواين**، دار المعارف، 1995.
- تشومسكي، نعام، **اللغة والعقل** (ترجمة: إبراهيم مشروح ومصطفى خلال)، دار تينمل مراكش 1991.
- ابن سينا، الحسين بن عبد الله، **الشفاء**، تحقيق سعيد زايد، الهيئة العامة لشؤون الطبع الأميرية.
- ابن ابن عربي، محيي الدين، **الفتوحات المكية**، دارصادر، بيروت.
- مشروح، إبراهيم، **كواين: ما بعد النزعة التجريبية، الدلاليات وفلسفة اللغة**، جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية، 2024 .
- ـــــ **كواين: ما بعد الفلسفة التحليلية، الدلاليات وفلسفة المنطق**، جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية، 2025.
- ـــــ **إشكالية الصدق والمعنى عند برتراند رسل**، (من خلال كتابه **بحث في المعنى والصدق**) (**Inquary into Meaning and Truth**) كلية الآداب- الرباط، مرقونة، 1984.

ثانيًا: المراجع الأجنبية

- Agazzi, Evamdo, "Les critéres sémantiques pour la constitution de l'objet scientifique", In *La sémantique dans les sciences*, Colloque de Rixensart, 1974.
- Ayer, A. J. (ed.), *Logical Positivism*, The Free Press, 1959.
- Brentano, Franz, *Psychologie vom empirischen Standpunkt*, Leipzig, 1874.
- _____ *Psychologie du point de vue empirique*, trad. M. de Gandillac & J.-F. Courtine, Vrin, 2008.
- Bunge, Mario, "The Scandal of Philosophy", Discours d'ouverture du Colloque de Rixensart: *La Sémantique dans les Sciences*, 30 Août - 3 Septembre, 1974.
- Carnap, Rudolf, "Überwindung der Metaphysik durch Analyse der Sprache", *Erkenntnis*, II, 1932.
- _____ *Meaning and Necessity: A Study of Semantics and Modal Logic*, University of Chicago Press, 1956.
- _____ "The Elimination of Metaphysics Through the Analysis of Language", In *Logical Positivism*, ed. A. J. Ayer, 1966.
- Chalmers, David; Manley, David; & Wassermann (eds.), *Metametaphysics: New Essays on the Foundations of Ontology*, Clarendon Press, Oxford, 2009.
- Chomsky, Noam, *Aspects of the Theory of Syntax*, MIT, Cambridge, 1965.
- _____ *Reflexions on Language*, Pantheon, New York, 1975.
- _____ *Règles et représentations*, trad. Alain Kihm, Flammarion, 1980.

- Churchland, Patricia Smith, *Neurophilosophy: Toward a Unified Science of Mind-Brain*, MIT Press, Cambridge & London, 1986.
- Davidson, Donald; Hintikka, Jaako (eds.), *Words and Objections: Essays on the Work of W. V. O. Quine*, Reidel, Dordrecht-Holland, 1969.
- _____ *Inquiries into Truth and Interpretation*, Clarendon Press, Oxford University Press, 1984.
- Dilman, Ilham, *Quine on Ontology, Necessity and Experience*, State University of New York Press, 1983.
- Dondeyne, Abert, "La différence ontologique chez M. Heidegger", *Revue philosophique de Louvain*, 1958.
- Duhem, Pierre, *La théorie physique: son objet et sa structure*, Paris, 1906.
- Feyerabend, Paul, "Explanation, Reduction and Empiricism", In *Scientific Explanation, Space and Time*, Minnesota Studies in the Philosophy of Science, University of Minnesota Press, 1962.
- Gochet, Paul, *Quine en perspective, essai de philosophie comparée*, Flammarion, 1978.
- Gregory, R. Mulhauser, *Mind and Matter*, Kluwer Academic Publishers, 1998.
- Haack, Susan, *Philosophy of Logics*, Cambridge University Press, 1978.
- Hamlyn, D. W., "The Theory of Language", In *Modern Introduction to Philosophy*, ed. D. J. O'Conner, Macmillan Press, 1971.
- Harman, Gilbert, "Meaning and Theory", In *Essays on the Philosophy of W. V. O. Quine*, University of Oklahoma Press, 1979.

- Heidegger, Martin, *The Metaphysical Foundations of Logic*, Indiana University Press, 1984.
- _____ *Être et Temps*, trad. François Vezin, Gallimard, 1986.
- _____ *Qu'est-ce que la métaphysique ?*, trad. Henry Corbin, Gallimard.
- Heisenberg, Werner, *La partie et le tout*, trad. Paul Kesler, Garnier-Flammarion, 2016.
- Hinton, J. M., "Quantification, Meinongianism and the Ontological Argument", *The Philosophical Quarterly*, 1972.
- Hookway, Christopher, *Quine: Language, Experience and Reality*, Stanford University Press, 1988.
- Ionut-Marasoiu, Andrei, ''Quine's Ontology: The Interplay between Commitment and Decision", *European Journal of Pragmatism and American Philosophy*, XII-2 (Online), 2020.
- Javier Rodriguez Alcazar, ''Epistemic Aims and Values in W. V. O. Quine's Naturalized Epistemology", *Philosophical Issues*, vol. 3, 1993.
- Kant, Immanuel, *Prolégomènes à toute métaphysique future*, Paris, 1865.
- _____ *Critique de la raison pratique*, Garnier-Flammarion, 2025.
- Kannith Binmore, *Imaginary Philosophical Dialogues between Sages down the Ages*, Springer, 2020.
- Kirk, Robert, *Translation Determined*, Oxford University Press, 1986.
- Kotarbinski, Tadeusz, "Le réalisme radical", In *Proceedings of the Seventh International Congress of Philosophy*, Oxford, 1931.

- Kuhn, Thomas, *The Structure of Scientific Revolutions*, University of Chicago Press, 1962.
- Kumar, Prashant, "On Quine's Philosophy of Mind'', *Philosophia*, vol. 50, 2020.
- Lambert, Karel, "On Logic and Existence", *Notre Dame Journal of Formal Logic*, vol. IV, no. 2, 1965.
- Largeault, Jean, *Quine, Questions de mots, Questions de faits*, Privat, Toulouse, 1980.
- Laugier, Sandra, "Signification et incommensurabilité : Kuhn, Carnap, Quine", *Archives de philosophie*, 2003.
- Lear, Jonathan, "Going Native", *Daedalus*, Autumn 1978.
- Lejevski, Czeslaw, "Logic and Existence", In *Lesnievski's Systems*, Nijhoff International Philosophy, 1984.
- Le Pore, Ernest (ed.), *Truth and Interpretation*, Basil Blackwell, Oxford & New York, 1989.
- _____ "Science et philosophie", *Revue de Métaphysique*, vol. VII, 1899.
- Lévy-Bruhl, Lucien, *La mentalité primitive*, Oxford at the Clarendon Press, 1931.
- Linsky, Leonard, *Semantics and the Philosophy of Language*, University of Illinois Press, 1952.
- Malherbe, Jean-François, "Epistémologie, logique et ontologie: une mise en perspective des thèses de Quine", *Revue philosophique de Louvain*, 1978.
- McDowell, John, *Mind and World*, Harvard University Press, 1994.

- Meinong, "Meinong", In *The Encyclopedia of Philosophy*, Macmillan, 1967.
- Munitz, Milton K. (ed.), *Logic and Ontology*, New York University Press, 1973.
- Nelson, R. J., *Naming and Reference*, Routledge, 1992.
- Piaget, Jean, *L'équilibration des structures cognitives*, Presses Universitaires de France, 1975.
- Piaget, Jean; Chomsky, Noam, *Théories du langage, théories de l'apprentissage*, Éditions du Seuil, 1979.
- Popper, Karl, *Logik der Forschung* (1935); English trans. *The Logic of Scientific Discovery*, Routledge, 2002.
- Quine, Willard Van, ''On What There Is", *Review of Metaphysics*, 1952.
- _____ *Methods of Logic*, Harvard University Press, 1953 (4th ed.).
- _____ "Two Dogmas of Empiricism", In *From a Logical Point of View*, 1953.
- _____ *Word and Object*, MIT Press, 1960.
- _____ *From a Logical Point of View*, Harper & Row, 1963.
- _____ "Epistemology Naturalized", In *Ontological Relativity and Other Essays*, 1969.
- _____ "Speaking of Objects", In *Ontological Relativity and Other Essays*, 1969.
- _____ ''Reply to Smart", In *Words and Objections*, 1969.
- _____ *The Roots of Reference*, Open Court, 1974.

- _____ *Theories and Things*, Harvard University Press, 1981.
- _____ "Indeterminacy of Translation Again", *Journal of Philosophy*, 1987.
- _____ *Pursuit of the Truth*, Harvard University Press, 1992.
- Rescher, Nicholas, "The Ontology of the Possible", In *Logic and Ontology*, 1973.
- Russell, Bertrand, *An Inquiry into Meaning and Truth*, Allen & Unwin, 1980.
- Russell, Bertrand, *The Philosophy of Logical Atomism*, 1983.
- Shahan, Robert W.; Swoyer, Christopher (eds.), *Essays on the Philosophy of W. V. O. Quine*, University of Oklahoma Press, 1979.
- Smart, J. J. C., "Quine's Philosophy of Science", In *Words and Objections*, 1969.
- Skinner, B. F., *Verbal Behavior*, Appleton-Century-Crofts, 1957.
- Vassallo, Nicla, *La naturalizzazione dell'epistemologia*, Franco-Angeli, Milano, 1997.
- Vernant, Denis, *Introduction à la philosophie de la logique*, Mardaga, Bruxelles, 1986.
- Wittgenstein, Ludwig, *Tractatus Logico-Philosophicus*, trad. Gilles-Gaston Granger, Gallimard, 1993.

جامعة محمد بن زايد
للعلوم الإنسانية
MOHAMED BIN ZAYED UNIVERSITY FOR HUMANITIES

نبذه عن الكتاب

بهذا الجزء الثالث والأخير، نكون قد استوفينا - قدر الإمكان - الإحاطة بفلسفة كواين دعاوى وطروحاتٍ أحطنا فيها خُبرا بمكانة نظرية الدلالة في فكر فيلسوف هارفارد وما نتج عنها من استشكالات لأسس الفلسفة التحليلية والوضعية المنطقية بالذات.

وهكذا قمنا بمعالجة الدلاليات وفلسفة اللغة، في الجزء الأول ثم أردفناه بجزء ثانٍ تعقّبنا فيه المراجعات الدلالية لفلسفة المنطق. وهنا وقفنا - في هذا الجزء - على مظاهر المنعطف الفريد في فلسفة العلم حيث أدخل كواين الإيبيستيمولوجيا في صميم العلم، وجاء بأطروحة أثارت نقاشات واسعة في صفوف العلماء وفلاسفة العلم، ويتعلق الأمر بأطروحة طبيعانية المعرفة أو ما أطلق عليه الإيبيستيمولوجيا المطبوعة.

وأخذًا بتداخل وتشابك المقاربات الفلسفية، لم يفتنا أن نعالج علاقة فلسفة العلم بالقضايا التي أثارها كواين بخصوص الأنطولوجيا التي جاء فيها بأطروحة النسبية الأنطولوجية، وبإشكالية الترجمة حيث بين أن النظريات العلمية قد تتباين فيما بينها رغم أنها تتعلق بنفس الواقع العلمي تماما مثلما تتباين كراسات المترجمين الذين يُجرون ترجمة جذرية لقوم لم يسبق أن نُقل لسان قومهم إلى لغة أخرى.

ISBN 9789948660859

9 789948 660859

mbzuh   MBZ university for humanities   mbzuh.ac.ae